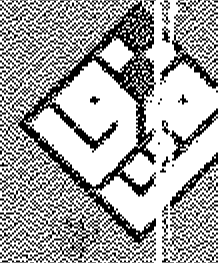
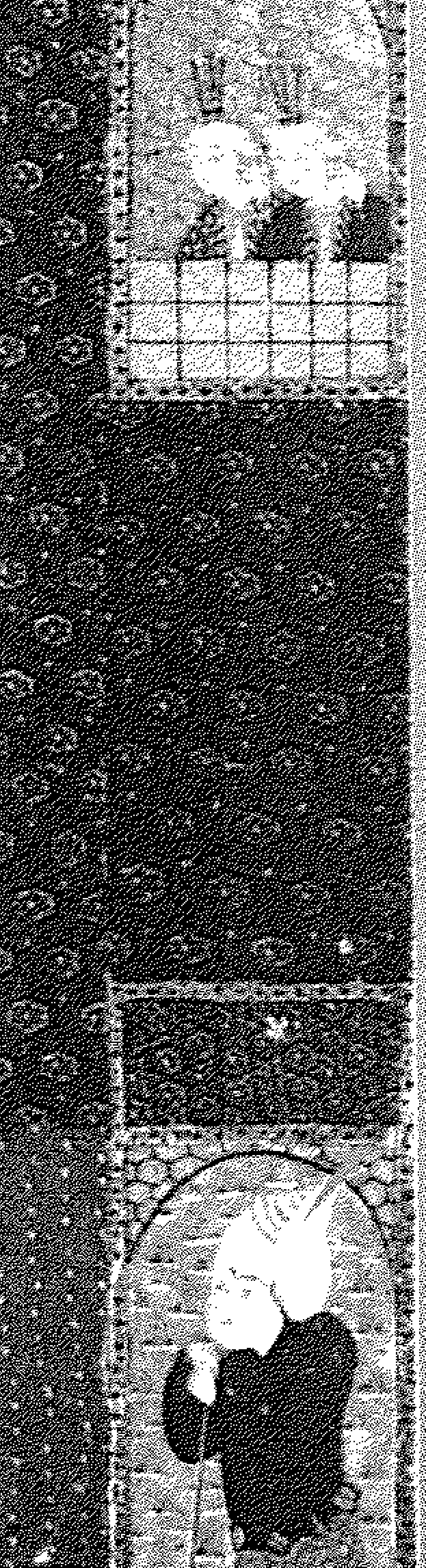


المشروع القومي للترجمة

لمعة السراج لحضرة التاج

بختيار نامة





ترجمة وتقديم / محمد علاء الدين منصور

320

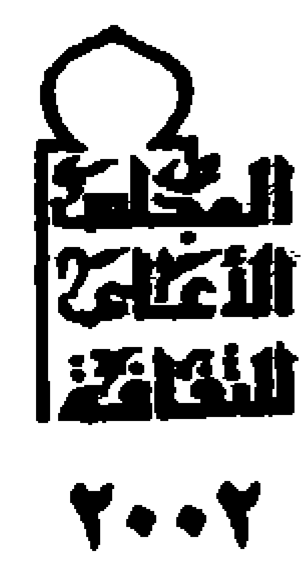
المشروع القومى للترجمة

لمعة السراج لحضرة التاج

« بختيار نامه »

ترجمة وتقديم

محمد علاء الدين منصور



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٣٢٠
- لمعة السراج لحضرة التاج
- مؤلف مجهول
- محمد علاء الدين منصور
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة عن الفارسية لكتاب لمعة السراج لحضرة التاج "بختيار نامه"
لمؤلف مجهول - طبعة بنياد فرهنك
إيران ١٣٤٨ هـ تصحيح : أحمد روشن

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

مقدمة المترجم

كتاب لمعة السراج لحضرة التاج حديث هزله جد وقصصه عبر وسمره حكمة ، مادته الأولى وضعت باللغة البهلوية في العصر الساساني قبل الإسلام ، وسمى بعد الإسلام (بختيار نامه) : أى كتاب بختيار ، وبختيار يعنى السعيد ذا الجدّ ، وتباينت الآراء حول من الذى ترجمه من البهلوية إلى الفارسية ؛ فذهب البعض إلى أنه شمس الدين محمد الدقائقى المرزوى نقله فى حدود القرن السادس الهجرى .

وأول من ذهب هذا المذهب العوفى صاحب لباب الألباب (ص٧٩ من طبعة الأستاذ سعيد نفيسى عام ١٩٥٤)، وعليه ذهب (وحيد دستگردى) فى مقدمته على (بختيار نامه) حين نشره ملحقا بمجلة (أرمغان) عام ١٩٣٢ م و(تربيت تبريزى) فى مقدمة لطبعة أخرى من الكتاب (انظر مقدمة المصحح أحمد روشن على لمعة السراج ص شش طبعة بنياد فرهنگ إيران عام ١٣٤٨ هـ. ش/ ١٩٦٩ ، والتى ننقل عنها كتابنا هذا) ، وقد سبق الاثنين الدكتور نبيح الله صفا فى حسم انتساب الترجمة من البهلوية إلى الدقائقى المروزى فى مقدمته على كتاب راحة الأرواح فى سرور الأفراح (انظر مقدمة أحمد روشن على لمعة السراج ص هفت) .

لكنّ أحمد روشن دفع هذه النسبة ولا دليل له على ذلك سوى أنه اسم المؤلف الموضوع بعنوان بنسخة كتاب بختيار نامه الموجود بمكتبة

ليدن ، وهو غير واضح لا يشبه رسم (شمس الدين محمد دقايقى مرزوى) ولا يتسع مساحته لهذا الاسم الطويل (راجع مقدمته على لمعة السراج ص هفت). وقد صادف نسخة (بختيار نامه) التى لا تتجاوز صفحاته ثمانى وأربعين صفحة من القطع الصغير المرحوم الدكتور أمين عبد المجيد بدوى فنقله إلى العربية عام (١٩٧١) بنشر دار المعارف بمصر تحت عنوان (الأمير بختيار).

ثم جاء كاتب مجهول الاسم بادى الفضل - كما يذكر الدكتور بدوى فى كتابه سندباد الحكيم ص ١٠ طبعة مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٧٨ - فى القرن السادس الهجرى فضخم متن كتاب (بختيار نامه) بما أضاف إليه من مقدمة وخاتمة وزيادات اقتضتها الصياغة البديعة الجديدة والاقتباسات و الاستشهادات المختلفة بالأشعار والحكم والأمثال العربية والفارسية والأحاديث والآيات القرآنية فصار المتن بطبعة بنياد فرهنگ ايران عام ١٩٦٩م ستًا وسبعين ومائتى صفحة من القطع الكبير.

وغيَّر هذا المؤلف المجهول اسم الكتاب فجعله (لمعة السراج لحضرة التاج) بعنوان بدا له أن اسمه القديم (بختيار نامه) لم يعد يوافق إخراجه الجديد الموشى على السجع والجناس وغيرهما من ألوان البديع فضلا عن رفاعة الفكرة وبراعة الصورة ، وأهداه إلى تاج الدين محمود بن محمد بن عبد الكريم صاحب ديوان الاستيفاء ونائب صدر الوزراء فى دولة ما وراء النهر فى عهده - القرن السادس الهجرى - وهو المقصود بحضرة التاج فى عنوان الكتاب - وممدوح الشاعرين المشهورين السوزنى السمرقندى ورشيد الدين الوطواط (راجع مقدمة أحمد روشن من ص هفت حتى ص دوازده) .

يرى (هرمـان إته) أن كتـاب بختـيـار نامـه أصل (لمعـة السـراج) ويسمى أيضا (الوزراء العشرة) يشبه فى مبناه ومرماه كتاب (سندباد نامه) أو (الوزراء السبـعة) وأنه كتب فى العصر الإسلامى تقليدا له (هرمان أته : تاريخ ادبيات فارس ص ٢٢٣ ترجمة الدكتور رضا زاده شفق وسندباد الحكيم للدكتور بدوى ص ٩) ونفس الرأى للمستشرق المعروف (نولدكه) الذى يعقد المشابهة بين الكتابين بحيث لا يمكن أن يستقل أحدهما عن الآخر ، والاثنان متأثران بما ورد فى كتاب ألف ليلة وليلة (مقـدمة أحمـد روشــن على لمعة السـراج ص هيجـده ونوزده) وكتاب سندباد نامه ترجع نسبته - على وجه الترجيح - إلى الهنود ثم ترجم من الهندية إلى البهلوية قبل الإسلام ، وذكره المسعودى فى مروج الذهب باسم كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك ، وبقيت ترجمته البهلوية حتى نقلت إلى الفارسية بيد أكثر من مترجم ، ولم تسلم من الزمان غير ترجمة بهاء الدين محمد بن الحسن الظهيرى الكاتب السمرقندى صاحب ديوان رسائل السلطان طغماج خاقان ملك ما وراء النهر فى نهاية القرن السادس الهجرى ، والتى نقلها الدكتور بدوى (راجع مقدمة سندباد نامه ص ٥-٩) . ويلاحظ الدكتور بدوى شبها بين بعض حكايات السندباد وبعض حكايات كليلة ودمنـة مـع اختـلاف جـزئى فى التفاصيل مثل : حكاية الحمامتين الذكر والأنثى فى الأثرين ، وحكاية الجندي والصبى والهر والأفعى فى سـندباد نامـه ، وحـكاية الناسـك وابن عُرس فى كليلة ودمنة (القصة فى الأدب الفارسى للدكتور أمين بدوى طبعة دار المعارف ١٩٦٤ ص ٣٤ -٥). ولكى تكتمل حلقة التشابه بين كليلة ودمنة وقصص ألف ليلة وليلة وسندباد نامه وبختيار نامه يضيف إلى هذه الآثار أثرا أدبيا باسم (مرزبان نامـه) الذى ألف بالطبرية أولا ثم نقله أكثر من مترجم إلى العربية والفارسية منها ترجمة سعد الدين الوراوينى ،

والتى حظيت بدراسة الزميل الفاضل الدكتور يوسف عبد الفتاح وترجمته ، وتولت إخراج هذه الترجمة الرائعة عناية المجلس الأعلى للثقافة تحت عنوان (قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان) عام ١٩٩٩ .

أنشأ المؤلف المجهول كتابه (لمعة السراج لحضرة التاج) ليظهر علو براعته وسمو براعته فى باب الإنشاء والفصاحة ليكون خير نديم للأمير المقدم له ، وليضمن به حسن الجائزة ودوام الذائعة ، وأكثر من الترصيع والتسجيع والتجنيس كما هى عادة المنشئين والمترسلين أصحاب النثر المصنع أو النثر الفنى (راجع كتابنا تاريخ سلاجقة الروم ، المقدمة ص ٢٠ فما بعدها للوقوف على سمات هذا الأسلوب . نشر دار الثقافة العربية عام ١٩٩٤) .

ومن يتصدى لنقل مثل هذه الآثار الأدبية الرفيعة إلى العربية لا مندوحة له من أن يبقى على جمالها وألا يغبن مؤلفها حقه ونصيبه فى إخراج عمله فى أبهى صورة وأطلى حلاوة .

ولا يفوت القارئ أن نقل الأثر الأدبى من لسان إلى لسان يفقده هذا الجمال بالضرورة إلا عند من يترجم البديع والصنعة اللفظية بنظيرهما دونما إخلال بالمعنى أو تقصير فى التعبير ، وهذا ما انتهجناه قدر الوسع بل زدنا حلاوة النص طلاوة وطلاوته طراوة رجاء أن يقع من القارئ موقع القبول والاستحسان ، وعلى الله التكلان .

المترجم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ...

ابتداء الأقوال وافتتاح الأعمال يتوجب بالحمد الإلهى وشكر فضله غير المتناهى حتى تتصل أنوار الكلمات ، وتستقبل آثار السعادة ، والحمد والثناء لله الذى زين بستان قالب الإنسان بورد العقل ، وجمل روضه نشوئه وإيجاده بأنواع الفضل ، هو الصانع الذى نُوِّرت مشاعل السيارات فى رياض السماوات بقدرته ، هو المبدع الذى تقررت منازل الثابتات بالدقائق والدرجات بإرادته ، مصنع العناصر فى بلاط الأعراض والجوهر محل إنشائه ، وقوة حركة الزمان فى فطرة السكنات مكان إعطائه . طرة سواد الليل على عارض النهار نسيج تقديره ، والخز الأدكن للسحاب على مظلة الربيع منسوج تصويره :

بدون إرادته لا يمكن أن يشدو بلبل بسورة من وحدانيته

ونغمة الطائرات فى العالم ليست خلا ذكر تقديسه وتحميده

وبعد الثناء على الخالق عز اسمه ، فالصلوات على سيد الأحرار سبب سعادة الزمان . ألا كانت الصلوات الكثار والتحيات بغير إحصار ، المقتبسة من صفاء العقيدة ، والملتمسة من وفاء الشريعة تحفة للروح ، المنور وتقدمة للقالب المعطر لسيد كل الكائنات ، ومقدم كافة المخلوقات ، ونثارا على الصحابة المكرمين ، على الخصوص ،الذين كانوا أزهار أشجار السيادة ، ورياحين بساتين السعادة ، ما نجم نجم ورعد رعد .

فصل

ترصيع هذه القلائد وتوقيع هذه الفرائد وقع فى وقت كانت الشمس فى أوج برج الحمل ، وكانت لطائف الاعتدال فى ترتيب العمل ، كانت الرياح فى اشتجار بشجر الصفصاف ، وكان الماء فى اختلاط بالتراب الجاف ، وكان الشعر المجعد للبنفسج يغص بالأضافير ، وكان جرم السحاب يشحن بماء الأزاهير وفرش الزمرد فى صحن كل مكان للأطيار ، ونقش الزبرجد على عارض كل محل للقفار :

لطاووس الزمان جناحان وريش يتجلد   وللعالم كوجه الحبيب جمال يتوحد

وكان سبب تحرير هذه المقالات وتقرير هذه الكلمات أنى لما وصلت إلى خطة سمرقند عمرها الله وكان بأذنى لغراب الغربة نعيب ويحضنى خوف الفراق المهلك للحبيب ، فلما أتيت من مطالعة الأطلال إلى مشاهدة الرجال ، رأيت اجتماع الأفضال ومقدمة مقامه منبع النوال .. فقلت لنفسى :

رأيت اجتماع الفضلاء وتجمع العلماء فى بلاط صاحب قِران عتبته كعبة الإفضال :

البلبل بغير الورد لا يتبَسَّم والببغاء بدون السكر لا يترنم

واجتماع هذه الطيور السعداء اللقاء على خضرة ، وتجمع هذه البلابل الجميلى الغناء على نضرة :

خير الطيور على القصور وشرها　　يأوى الخراب ويسكن الناووسا
البازى على ساعد الملك طيـــار　　والبوم على أبراج الخراب والقفار

فناجانى قلبى : لابد من الخطو بموافقة الخلان فى هذا البستان وإلى متى السير فى أشواك بادية المحنة ؟ لابد من التروح فى النهاية فى منقش حجرة العناية ، وختام طى مفازة ألوان البلية ؟ ولا مناص أخيرا من تفيؤ ظل شجرة الرعاية .

وعلى وفق هذه الإرادة والإشارة هتفت (لبيك) مستعدا للخدمة وأحرمت مستمدا للسعادة ، ووجهت وجهى شطر روضة معالى صدر الأحرار وسيد الأعصار قبلة المكان وقدوة الزمان تاج الدولة والدين شمس الإسلام والمسلمين اختيار الملوك والسلاطين افتخار الدولة ، نظام الملة ، فخر آل خراسان ، أكرم ما وراء النهر ، الكريم ابن الكريم محمود بن محمد بن عبد الكريم أدام الله علوه وزاد كل يوم سموه . وقلبى الذى كان مكسور النوائب استمد قوته بنسيم تلك الأزهار ، وشخصى الذى كان منهوك المصائب لقى صحته فى ظل تلك الأشجار :

ومازلت حتى قادنى الشوق نحوه　　يسايرنى فى كل ركب له ذكر
واستكبر الأخبار قبل لقائه　　فلما التقينا صَغَّر الخَبَرَ الخبْرُ

فقلت : بحمد الله بعد قطع الفيافى ، وردت الزلال الصافى ، وبعد محنة صحراء السبيل ، نقت شربة السلسبيل ، ووضعت نقد الإقبال على كفى ، ووصلت فى ظل جناح عنقاء همته إلى السعادة ، ورأيت الكمالات فى تجلى طاووس روضة رفعته :

له يد برعت جـــودا بنائلهـا ومنطق درُّه فى الطرس ينتشر

فحاتم كامن فى بـطن راحتها وفى أناملهـا سحبـان مـستـتر

ألا كانت آلاف الأرواح فداء لصاحب إقبال ، لأنه إذا غنت حدائق دولته بأثمار البهجة فقد استغنت فى الحق الخلق المظلومة من الزمان ، يروم المال لأجل الإيثار ، والمنال لأجل الأحرار ؛ فإن نبلت روضة حاتم الطائى بصدمة السحاب الشتائى فإن نسيم ماء ورد صيته يزيد كل لحظة قوة ، وإن سقطت شجرة مَعْنٍ بن زائدة بسطوات الأجل فإن فوائد حسن ذكره تزداد كل يوم ثروة .

مضت مدد وشخص معن فى تراب الرميم والرفات ،لكن تلك الكلمة التى جرت فى بيان جوده على ألسنة الوجود هى كنسيم الصبا حول الآفاق سائرة ، ومثل كاس الشراب على أيدى العشاق دائرة :

إذا بت مـبطانا وجارى جـائع فلاقى وريدى باتر الحد قاطعا

وإن آثرت كفاى منعـا ففارقت رواجبهـا والراحـتـان الأصبعـا

ولأن لفضلاء العصر وعلماء الدهر فى كل صباح ورواح فى تلك الحضرة اجتماعا لاقتراح المعالى وافتتاح المعانى ، وهم فى العلوم كلية متبحرون ، وبفضائل الذات والصفات مستظهرون ، ولهم من تلك الدولة رفد واصطناع ، يفور اليوم زلال النوال من منبع إفضاله ، وتنير نار القِرْى من جانب مخيم سخائه ، فعلى مثال كرام العهد صَيَّر هذه الكلمة الشريفة المعول :

الليــل يـا راقـد ليـل قـرٍّ والريح يا واقـد ريـح صَـرٍّ

عسى يرى نارك مـن يمـر إن جلبت ضيـفا فـأنت حـر

حتى ليلة من هاتيك الليالى التى هى فى الحق نهار السعادة ومعهد الكرامة ، كان للقلوب فيها فى رياض المسرة تنزه ، وللأرواح من لطائف الأدب تفكه ، وكانت مصنفات أهل التواريخ تطالع ومؤلفات الأخبار والأشعار تشاهد والليل الطويل لا يتأتى طيه بغير لذة عتاب أو مطالعة كتاب :

(وخير جليس فى الزمان كتاب)

فحانت ليلة كانوا يقرأون فيها (بختيار نامه) فجرى لفظ ذلك العظيم الفخيم الذى هو مظهر النعيم والنعم ومنتهى السخاء والكرم بقوله : إن قصص هذا الكتاب مشتملة على المواعظ والحكمة والعجائب والعبرة .

لكن بما أن عبارته ليس لها علو ، فلم يك لأهل العهد فى مطالعته غلو ، ولو أن لهذه العروس سوارا وخلخالا ، ولهذا الطير زينة مع ريشه وجناحيه وجمالا ، لتداولوا مواعظه وحكمه ، ولتناولوا عباراته واستعاراته ؛ فخطوت بحكم هذه الإشارة بقدم التقرير فى الميدان ، وأخذت بقلم التحرير فى البنان ، فقلمت سرو هذه الروضة ، وزينت أطراف هذه الجنة من غاية ، صفاء عقيدتى فيه وخلوص المحبة وعشق الخدمة إليه ، من أجل تخليد ذكر عوارفه ، بل لأجل تأييد أنواع معارفه ، وأرسلت من بستان سعادته فاكهة إلى خلان دولته :

على العبد حق فهو لابد فاعله — وإن عظم المولى وجلت فضائله

ألم ترنا نهدى إلى الله ماله — وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله

ولأن اسم العلم من نتائج الفكر والقلم ، ولا يحمل مولودا بلا اسم بين الناس ولا شراب بدون جام وكاس ، ومع أن اسم هذا الكتاب فى الأصل كان (بختيار نامه) لكن الخشب إذا جوف سمى حقة ، والذهب إذا دور سمى حلقة ، والمادة حين تكتسب صورة جديدة تقبل اسما جديدا؛ لذا أسميت هذا المجموع (لمعة السراج لحضرة التاج) ويشتمل

على عشرة فصول وعشرة أبواب . وفى كل فصل أصل من الحكمة ، وفى كل باب لباب مـن الموعظة ، والغرض الكلى هو أن يكون للزمان من أنوار عـهد تاج الدين تذكار، وللدنيا من لطائف مكارمه إظهار ، حفظ الله تعالى شمس دولته من مشقة الكسوف ، وقصر عن نيل حضرته يد الحوادث بمنه وجوده .

والآن نأتى إلى فهرست الأسرار والأبواب ، ونشتغل بترتيب الأقداح والأكواب فلا يحلو الحديث اللطيف بدون الأبواب والفصول ، ولا تجمل طرة المعشوق بغير التضفير المقبول :

الباب الأول

فى كيفية ولادة بختيار وتربيته بين عيارى الجبال والقفار والآفة التى تولدت من شرابه وثمالته والحوادث التى صبتها دورة الأيام على هامته .

الباب الثانى

فى قصة التاجر الذى أدبر حظه وانتكس أمره ، وفى ضمن هذه القصة عبر للعقلاء وحكم للفطناء .

الباب الثالث

ويشمل قصة بائع الجواهر وأنواع مقاساته وألوان بلياته فى البداية ، وحسن حاله وحصول آماله فى النهاية ، وبهذه القصة عجائب الصنعة الإلهية ونوادر الأحكام غير المتناهية .

الباب الرابع

قصة أبي صابر وعاقبة أمره في نظم الأحوال وترتيب الأعمال وما حدث في تملكه الممالك وخلاصه من المضايق والمهالك ، وفي هذه القصة إشارة إلى وجوب جعل الصبر والسكون أساساً للإنسان وجعل الحلم والعقل زينة للمزدان .

الباب الخامس

قصة أبي تمام الوزير والبلية التي أصابتها بحسد جماعة الحساد والخزي الذي رآه أصحاب العناد والحساد والعقوبات التي حلت بهم بسبب حسدهم ، وبهذه القصة إشارة إلى أن الحقد والحسد من أسوأ الخصال وسبب الزوال والنكال .

الباب السادس

قصة ابن ملك حلب وما أصابه من ألوان التعب وأنواعه وماناله وعاناه من مضرة من الاستعجال في اختلاف الأحوال ، وبهذه القصة إشارة إلى أن التعجل مذموم والاستعجال في كل الأحوال ملوم .

الباب السابع

في قصة (بهكرد) وما رآه من حوادث من تغير الزمان وما قاساه من محن من اختلاف الحدثان ، وبهذه القصة إشارة إلى كل من يعمل إحساناً وإساءة يرى جزاءه في هذا العالم العاجل ، وينال مكافأته في الآجل .

الباب الثامن

ويشمل قصص مكر النساء وأنواع غدرهن ، وبهذه القصة إشارة إلى حفظ الحرم والحرمة وإقامة مراسم الفتوة .

الباب التاسع

فى قصة الملك (دابين) وما ارتكبه من ظلم لقضاء شهوته والضربات التى لحقته جزاء خيانته ، وبهذه القصة إشارة إلى أن متابعة الشهوات النفسانية بسبب الإدبار فى الدارين الحالية والآتية ، وأن عاقبة الظلم أمر وخيم ، وخاتمة الجور عذاب أليم .

الباب العاشر

فى قصة ملك الحجاز وعجز الإنسان أمام القضاء والقدر وظهور أحوال بختيار بتأثير لطف الله وتصحيح نسبته إلى شجرة السلطنة والملكية وجلوسه على أريكة السعادة الملوكية .

الباب الأول

فى كيفية ولادة بختيار وتربيته بين عيارى الجبال والآفة التى تولدت من شرابه وثمالته ، والحوادث التى صبتها دورة الأيام على هامته .

بداية القصة

روى أصحـاب التواريخ أنه كـان فى القرون الماضـية والأيام السالفة فى بلاد العجم ملك من ملوك العالم صاحب تاج وتخت اسمـه آزاد بخت . ملك مظفر مـعزوز فى بلاد نيمـروز . بساط العـدل والإنصاف بسطـه ، ومن حدود سـيسـتـان حتى سـاحل البحرين وعمان ضبطه ، وكـان له عشرة وزراء كاملون عادلون ، كل منهم فى المعـانى كـان آيه ، وفى المعـالى صـاحب راية أمـا هوفعلوم الأوائل والأواخر قد علقها ومعلومات الظواهر والبواطن قد حققها فانهدم أساس الفتنة وانعدم خصوم السلطنة :

ملك يماثل الربيع فى خضرته ونضرته

مزدان كطرة الريحان فى فصل الاعتدال

ونقشت يد وفاء العالم وإحسـان الزمان أرقام عدالة هذا الملك ، وكان لهذا الملك قائد ، رجل ضـرب وطعان ومبارز للأيام والزمان ، فى الشجاعة بلا مثيل وفي الشـهامة بلا بديل ، في صف الهيجاء ليث صائل ، وفى أنواع السـخاء غيث هاطل ، كان القـمر يندى جبينه من بريق نصل حسامه، وكان التراب يغدو ياقوتا من حريق نعل حصـانه ، كان ينهك السّمـاك الرامح برمحه ، ويعـقد عنق الاسد بوهقـه ، كان يبكى عين العدو فى مـيدان القتـال ، وكان يضحك شفـة الملك فى مجلس الاحتفال . كـانت أوامره ونواهيه فى الملك مقبولة ، وإشاراته ومقـالاته في الولاية مسموعة ، لكن مع أنه كان رجلاً فـائقًا ومبارزًا مفـيقًا وعلى دقائق سـياسة الملك مدققا واقفا على عتبة نظم الولاية ليل نهـار معتكفا ، كان متصفا بعيب واحد ، كمـا هى عادة أهل الشجاعة ، فإذا فـاض كشحه بالنقمـة عـلى إنسـان ، واستولى عليـه الغضب منه والشنآن ، لم تكن نار سخطه تسكن بماء العذر والاعتذار ، لم يكن يخبر أن غبار السـخط يذهل عين الإنسانية ، ومـتابعة الحقد تـكدّر صفاء الآدميـة ، وقال النبى عليه السـلام : الغضب نار من الشيطان ، والشـيطان من النار ، فطوبى لمن أطفـأ نار الغـضب هربا من نار الشيطان :

لا تحتد غضـبا فنـار الغضب   تحـرق بيـدر حسـن ذكـراك
وصافح بيدك يد العقل حتى   ينيـر لك شـمـع الإنـصـاف

وكان لهـذا القائد ابـنة ذات جمال حـتى أن الشمـس كانت تنفس عليها جمال وجهها الضافى ، وكانت طرتها خلاصة المسك الصافى ، كانت الزهرة تتـحرق شوقا إلى عشقـها ، وكان الفلك يكر ويفر على جواد حبها :

سلَّم النقاش وجهها من النقائص

وأبدى فى نقش وجهـها صنعـته

وبلغ جمال قدها مبلغه من الكمال

حتى إنه أمر كل مشاهد بتمنى رؤيته

فللمـسك ريـاها وللراح ريقـهـا

وللظبى عـيناها وللغـصن لونهـا

وكان أبوها بحسنها معتزا ، وبجمالها مهتزا ، ولعله لم يخبر هذا الخـبر وهو أن النـبى عليه السـلام قـال : « دفن البنات من المكرمات » :

لا تعــقـد قلـبك بعـشـق البنات

إن كنت عاقلا ، ولا تسلـمه للشيطان

فإن كانت بنات السماء يجب لهن

النعش ؛ فالنعش أحرى ببنات الأرض

وفارق والدهـا إلى مطالعة أطراف الولاية ليـستـخبـر أحوال الرعايا ، ويـستفـسر عن تصـرفات الولاة ، قال صلـى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

وليـرى كيف يمضى الزمـان الضـعفـاء المظلومـون والفقـراء المحرومون ، ويتفحص كيف يقضى الأيام الكادحون من الرعية ، والمغبونون من المملكة ، وكان يناجى نفسه دائما بقوله: تنبه يا من أمرك كأمر السدوم وفكر وقت السحر فى سهم دعاء المظلوم .

وجاء في الخبر : الظلم ظلمات يوم القيامة ، ولما طالت مدة غيبـة الأب عن ابنته ، أرسل رسولا ثقة ليحـمل إليه ابنته من دار الملك حتى يأنس بمشاهدتها أياما عدة .

واتفق إن الملك كـان يصطاد فى سواد المدينة فى اليـوم الذى خرج فيه هودج ابنه القائد من مـدينة الملك . كان قد طيَّر جوارح الطيـور ، وأطلق الشـاهين والباشق فى أطـراف الغابة ، وكـانت الكلاب المعلَّمة فى عدو عجول ، والفـهود تزأر وتصول ، وفجأة وقعت عينا الملك على جانب الطريق ، وسط هذا المعترك ، فرأى هودجا محمولا مزدانا بالأقمشة الملمعة والأربطة المرصعة حتى إن بهاءه ورواءه باهى ببهائه سماءه ، وأطرافه وأكنافه فاخرت خضرة الرياض ونضرتها ، كان الخدم الأحـباش يعدون أمام الهودج على أقـدامهم ، والورد والشـقائق تتـلو آية (وإن يكاد الذين كفـروا ليزلقونك بأبصارهم) :

حسنك حين يوقد شمع حبيب
يحرق فى مجمرة الفلك عوده

فلما رأى الملك هذا الهودج سيَّر غلاما ليقف على مالك هذا الهودج الملوكى فى عهده ، لأنه لا يليق بغير مواكب الملوك مهد مثله أو هودج ، ولا يناسب غير حرم السلاطين وبلاط المالكين مظلته ورايته .

وللملوك رسوم لا تباشرها   إلا الملوك وفى الدنيا لهم خدم

فلما رأى الخدم غلام الملك استبقوا بالخيل وقالوا : هذا هودج ابنة القائد ونحن نحملها إليه بحكم إشارته ، ومن كان الهجر بليته صار الوصل راحته ، فلما أنهى الغلام إجابة الخدام إلى مسمع الملك عجل بجواد يعدو أمام الهودج لكى يزجى سلامه إلى القائد ويرتب رسالته إليه ، فيلين بألفاظ الملوك جانبه، ويسترضى بالكلمات اللطيفة غاربه ، فلما بلغ جواد الملك جانب الطريق ، ترجل الخدم من جيادهم وقبلوا الأرض بين يديه ، ووقفوا عاقدين أيديهم على صدورهم خضوعا وخشوعا ، فأزجى الملك رسالته بألطف اللطف ، وأرسل سلامه بأحلى العبارات .

وهبت ريح على حين بغتة فكشف جانبا من مظلة الهودج فوقع نظر الملك على جمال الفتاة ، رأى منها وجها هو فهرست الجمال ، وطلعة هى نهاية الكمال ، خالط العاج الصاج ، وانتثر الورد على صحيفة الفضة :

يا مقبلا كالقمر أنت جمال البشر

ما الحسن إلا بصر وأنت نور البصر

ماء الجمال بجملته يجرى فى جدولك

وشمس البهاء بكليته تشرق فى طلعتك

فلما وقع نظر حاكم الحكام على جمال بدر التمام ، غدا قلبه صيدا لهذه البُنَيَّة وصار الصائد صيداً والحر أسيرًا ، والعشق طير يدخل من هواء النظر فيبنى عشه في القلب ، فإذا دخل عشه خرج كل الصبر ، مثل : رُبَّ صبابة غُرست من لحظةٍ ، ورب حزن جنيت من لفظةٍ .

وابتلى فؤاد الملك بالعشق ، كان حياؤه الزاجر يقول : مر ولا تنظر فقد أفتى الرسول في الخبر : لا تتبع النظرة النظرة ، فإن الأولى لك والثانية عليك ، وكان عشقه الغالب يقول : عيل الصبر وضاق الصدر ، وعجز القلب عن التحمل ، وصار إذ ذاك الفؤاد سَلْبَ هجوم الحسن ، ووقعت الروح نَهْبَ حملة الحزن :

نجم لى من العشق أمر وأى أمر

وانغرس من الزمان بقلبى شوك وأى شوك

ويقدر ما جاهد الملك في طي بساط ذلك العشق من صحن قلبه ، وكلما أعرض عن مباراة حريف المراد في نرد الهوس ، كان العشق غالبا والشوق جاذبا ، أخرج عنان التصرف عن يد جهده والتكلف :

العقل رجل يعلم السيادة　　والعشق ألم يحرق الملوكية

إذا توافق العشق مع الروح والقلب　　اجتثت دار الصبر من أساسها

فلما استؤسر قلب الملك أخذ عنان جواد الهودج من يد الخادم ، وقال له من غاية الافتقار إلى وصل سالب القرار :

ما تدبير الوصل ولم يستقر قلبى بصدرى

ولا أدنى عجب من أن العشق لم يبق فكرة برأسى

مثل : العشق داء الكرام ، العشق طير لا يطير إلا فى فضاء قلوب الكرام ، ومضيف لا يعز غير ضيافة الكريم ، وجرت فتوى مفتى الملكوت ، وهو منهى أسرار الجبروت ، من سرادقات كمالات المروة فى إظهار أنوار الفتوة بهذا الخبر : من عشق وعف وكتم ومات مات شهيدا . حياة العاشق رواء السعادة وممات العاشق بهاء الشهادة :

العشق سكر خماره التلف　　يحسن فيه الذلول والدنف

قيل لحكيم من حكماء اليونان : عشق ابنك فقال : الآن تم فى الإنسانية ، وما لم يكن الطبع سليما والخلق مستقيما ، كان العشق متعذرا ، وما كان الحب متصورا ، ودليل الكمال الإنسانى ، ونهاية الجلال الروحانى ، هو العشق ، لأن العشق ينزل فى قلوب

الرجال لا فى قلوب الأطفال ، ويخالط أرواح الكرام ، لا نفوس اللئـام ، وذلك لأن طالب العشق نفـسه مـعتدلة وذاته كـاملة ، وعلى الحـقيـقة مـالم تكمل النفس الإنسـانيـة لم تتحـصل اللذة العشقية ،ومن لم يذق لم يَدْرِ :

هذا العشق ظريف يروم ظريفا ويود جـميلا وفـريدا ولطيـفا

قيـل لحكيم : ممّ اشتق العـشق ؟ قال : العـشق مشـتق من العشقة ، والعشقة نبات يلتف بالشجرة ولا يدعها حتى يجففها :

العشق مأخوذ من العشق الذى إذا التف فى القضبـان جفّ رطبها

سئـل أحدهم : مـا العشق ؟ فـقال : أوله وسـواس وآخره إفلاس ، وكل من تنفس فى العشق نفسًا دق فى الهوس جرسًا . أما حـد العشق بالقول فهـو أمر الفارغين ، وحق العـشق بالفعل شغل البالغين . والطير الذي يطيـر بريش التمنى وجناحى التغنى في فضـاء الهواء يطـلب مرة طرة حـسان الرياحين ، ومـرة غزل حـوريات البسـاتين ، ومن ذا الذى يخـبـر بالآلام فى قلب ذاك البلبل الذى يشدو بصوت كسير وروح حسير لفراق وجه الزهور، أنه بالليل والنهار فى القفص وبالرواح والصباح فى جرس :

يا من لا تخبر بالمحترق والاحتراق إن العشق بالمـعاناة لا بالأوراق

وحديث عـهد اللوى ومـا جرى بأيام الحمـى لابد من ذكره لعشاق العرب لا صبيان المكتب ، فإذا وصل الكلام إلى هذا المقام لا يجد الـعاشق مع الرقبـاء عظيم صالـح ، مع أنه مُعَنّى مـتألم بالهم الفـادح ، ، وعنقاء بقـاء العشق من ذروة عش الـصدق ، تصيح بوجوب أن يكون للعشق قدم الكرم ، لا رقم القلم ، لابد من مجنون بنـى عامر حـتى يمكنه أن يقامر فى مـلهى العشق ، ولابد من كُـثَير البـدوى العربى حـتى يعلم أن يشرب مـن حانة الشوق :

الروح العجيب هى التى تدرى العشق لأنها تعلم تفسير شهد الشفاه

القصـة : أمسك الملك زمـام ناقة المحـمل بيد العـشق لفرط الصدق و كلف القلب ، لما وقعت عـينه على الهودج ذى الجلال ثار بقلبه نار الوصال ، وهاج بروحه تمنى الجـمال ، فرفع النقاب من على المهد ، بيد حسن العهد ؛ فرأى معشوقا فى المحمل أمره كل تمنع وجبـر ، وعاين محـبوبا فى ذاك الهودج عـمله كل فتنة وأسر :

جاء النسـيم بَريَّاها فقـلت لها الآن جـئت بما أهواه أزمـانا

رأى مُحَيًّا كله زينـات وشـاهد طـرة كلها حليـات وخداً كأنه برج الـزهرة والمشترى ، وقـدًا كأنه بيـادر الشقائق والـنسيج الحريرى .

ولما أدرك الشاه أن قلبه ثمل بالعشق ، وروحه تلفت بالشوق قال للخادم :ألا أيها الخادم المشفق والمحب الحاذق :

إكـرام أهل الهـوى من الكرم وأمــة العـــشق أطرف الأمم

عشق جـمال هذه البنيـة صاد قلبى وفـؤادى ، وأسر روحى وعمادى والصلاح أن تسـير إلى القائد وتقول له إن الملك يخطب ابنتك ففى المـلك الخطبة والسكّة ناموس ، ومنه تـلك الخطبة هى إيثار فـرق هذى العروس ، والسكة نثـار رأس هذى الطاووس ، وأنت على علم بأننى حـرىّ بهذا الإصهـار وقمين بتلك الأفراح الكبار (مثل) : وكل إنسان أعرف بشمس أرضه .

فلما سـمع الخادم هذه الكلمات قبل الأرض ، وقـال ما يراه الملك من رأى هو عين الصلاح وأساس الفلاح ؛ فلو رأى والد هذه الفتاة هذا الأمـر فى المنام ما وسعه الحبـور والسرور ، ولكن لكل أمر طريقا ، ولكل دعوة تحقيـقا ؛ فللسرور مواسم ، وللسؤور مراسم، فـإن حمل المـلك هذه الابنة إلى المصـر لظن النظارة أنه أتى بهـا بالقهر والجبـر ، ولصار للأحياء مجال القـيل والقال ، وللأعداء إمكان الخصام والجدال ، فالصـلاح أن تأمر بأن أصل بالابنة إلى أبيها وأنهى إلى سمـعه هذا المعنى ، فيـمتن القائد بهذا التـشريف من الملك ، ويعد هذه الدولة عنوان سعادته و «الدولة اتفاقات حسنة»

مثل يطريه لنفسه ، فيعد ما يليق بطاقته جهاز ابنته ، ويبذل ما فى حد يساره ما لابد لها ، ثم يرسل بها حضرة وخدمة السلطنة :

لا يليق التعجل من العاشق   وليس من أمره غير الصبر والسكوت

(العجلة من الشيطان والتأنى من الرحمن) ، فلم يوافق كلام الخادم هوى السلطان ، والصبر أمرّ من الصبر ، فصرخ في الخادم وقال أتجترئ على وعظى وتجرى لسانك بموعظتى واراد معاقبته لكنه فكر فى أنه لا يجب إغضاب القلب الرقيق للمعشوق بهذه الحدة ، ولا ينبغى إتعاب الطبع اللطيف للمشوق بهذه الشدة : عفو جرائم الخدم من كمال الكرم ، وقال تعالى : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس).

وترك الملك الخادم ، وأخذ بعنان الهودج ، واتخذ طريقه إلى المدينة ودخلها وقت أن كانت أطنبة شعاع الشمس تفك من مسامير الآفاق ، والستارة السوداء تلقى على مفرق المغرب والمشرق ، وقد لمعت الكواكب الثواقب من معارج الأفلاك ، وطلعت أجرام السيارات من مدارج السماوات ، فاستدعى إلى حضرته جماعة من العدول والثقاة ، وطائفة من الحكام والقضاة، فأمرهم فاسترضوا الفتاة على النكاح ، وأزالوا شبهة السفاح ، وعقدوا عقدا على وفق فتوى الشرع ، ووثقوا عهدا على ذوق حسن العهد ، وأن حسن العهد من الإيمان :

بذلنا كل ما لدينا من جهود بسبب العشق

وتحايلنا لوصلها بكل ما عندنا من عهود

فلما انعـقد العقد ، وتوحدت أسـباب العهد ، أخـذ أعيان الدولة وأركان المملكة يكتبون رسائل التهنئة لتجديد تلك السعادة، وأخبروا القائد بطلوع قمـر هذا الظفر ، وبدأوا فى إعداد الأفراح ومراسم الزفاف :

عرس تعـرّس عندها الإقـبال وتنـال فى جـنبـاتهـا الآمـال

بدر يزف إليـه وسط سـمـائه شمس علـيها بهـجة وجـمال

سـعدان ضـمهـما نعـيم دائم قـد مُدَّ فـيـه على الأنام ظلال

ومع أن الملك خطا فى جـادة الشرع ، لكن الخـادم سار فى خطإ الفتنة وأبلغ مـا جرى من تلك الأفعـال ، وما وقع من تلك الأعمال إلى مـسامع القائد فتفتت قلب الأب لحب فـتاته دماء ، وكان يـتلو رسائل تهنئـته وبشـارته ، ويذرف الدموع من عـينه وناظرته ، ويجرى هذا البيت الجاهلى على لسانه :

سأغسل عنى العار بالسيف حالبا على قضـاء الله ماكان جـالبا

تجرع شـربة غصص الأيام وأسـدل ستر السكـوت على وجه الانتقام: العداوة فى الفؤاد والجمرة فى الزناد ، ولما قرأ الرسالات كتـب فى الحال لأجل المصلحـة كتـاب شكر لحضـرة السلطنة ،

يشتمل على أنواع الثناء ، ويشحن بأصنـاف الدعاء ، فأى سعادة هذه التى ساعـدته ، وأى كرامة هـذى التى وافقتـه ، وبأى بيان يمكن شكر هذا التشريف ، وبأى بنان يمكـن ذكر تاريخ هذا الإقبال ، والآن وقد وضعت تاجا على مفرقى أنا الخدام وقد فتحت بابا من السعادة على أنا الغلام ، فإنى عقدت حزام الخضوع على خاصرة الخشـوع ، ووقفت على قدم الانصـياع التام ، أنتظر أمـر حاكم الحكام ، وسوف أصل بأقـصى السرعة إلى حضـرتكم ، وسوف أقبِّل طالبا السعادة أرض عـبوديتكم وأنشد هذا الشعر وأزجى هذا الشكر :

ألبستنى نعمـــا رأيت بها الدجى

صبحا وكنت أرى الصباح بهيما

فغدوت يحسدنى الصديق وقبلها

وقـد كان يلقـانى العدو رحـيمـا

كـان يكتب فـى الظاهر هذه الكلمـــات ، وكـان يرتب فى الباطن خمير المعاداة ، فى الظاهر كان أحلى من العسل الصافى ، وفى الباطن كان أصلى من السم الزُّعافِ :

مع أن وعـد الحبـيب على مـذاقى

فليس وعده غير الخلاف والمكر والخداع

كان القائد فى باطنه غصصا يتجرع ، وفى ظاهره ملقا يتصنع ، كان يوارى نفسه فى وكر المكر ويدارى قصة الغصة :

أتانـى عنـك يا لـيس علـى مكروهة صبـر

فـأغـضيتُ على عـهـد وقـد يغضى الفتى الحـر

إذا لم يصلح الخـيـر لمـرء أصلح الشـر

وفى الشـر نجـاة حين لا ينجيك منه إحسان

وأخذ الملك يمضى أيامه مع عروسه هذه ، تقرر عيشه بلذات الوصال وتنور حكمه بأنوار الإقبال ، وكان يهب الخزائن والدفائن إلى تلك المحبوبة ، وكان يرتب اللطائف والطرائف إلى تلك المرغوبة :

صار الإيوان من سرور وصل الحبيب جنانا

وتفتح مزدهرا ورد المراد روضة وبستانا

كان الملك مستغرقا لذات الوصال ، وكان القائد مدبرا المكر والاحتيال ، ولما انصرمت عدة شهور على هذه الحادثة استدعى القائد دون علم الملك كبار جيشه ، وقال لهم : اعلموا أن لدىّ سرا معكم لابد من إفشائه ، وأنتم لا محيص لكم من إخفائه ويعلم الجميع أن السر وديعة لا يمكن إيداعها إلا فى قلب الشهماء ، وهو مستودع ضمير درج لا يمكن فتحه إلا أمام الكرماء :

لا يكتم السـر عند ذى كرم والسر عند كرام الناس مكتوم

فلا يجب إعلان هذا السـر المستتر ، وهذا السـتر المخدر ، وإهمال حـياتى وحيـاتكم ، وإبطال حسن نيـتى التى هى نتيـجة صفاء عقيدتى واضـمحلال مصلحة رويتى التى هى ثمرة خلوص طويتى ، ألا إن الدين نصيحة :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله　　على قومه يُسْتَغْنَ عنه ويُذَمَم

فخـضع جملة الأمراء والحـشم للقائد وقـالوا : كنت المقدم دائما علينا والمحـترم ، افتخـرنا برئاستك واستظهرنا بقـيادتك ، وكان تنسم دولتنا من جنة رأيك الرشيد ، وكان تبسم سعادتنا من عقلك الـسديد ، فرأينا دومـا منك الرشادة ، وقطفـنا من روضة فكرك ورد السعادة .

فلمـا سمع القـائد أمارات العـهد والوفـاء وعاين عـلامات الخلوص والصفاء قال :

اعلموا أن هذه المملكة أنتم الذين أقمتموها ، وشجرة ملكها أنتم الذين زرعتموها ، لكن ثمرة سعادة هذا الملك لا يحتظى بها غير الملك ، أنتم تعانون التعب الأليم وهو يجتنى الكنز العظيم ، أنتم تخاطرون بأرواحكم فى القتال وهو يهنـأ بالسعادة والإقبال ، أنتم تلعـبون لعب الحـرب ، وهو يغتـنم الغنم والسلب ، وأنتم تدرون كم من المسـاعـى بذلت فى نظم سلسلة المـلك ، وتسكين زلزلة الهلك حـتى انتظمت هذه الدولة فى سـلك الاستـقامـة ،

وحتى انعدمت فتنة هذه المملكة بلطف الدراية ، ومع كل هذه السوابق الحميدة واللواحق الأكيدة طالما أنى لم يعد لى عنده إكرام فلن يكون لكم لديه احترام ، وحرمة الحرم من مواجب الكرم ولوازم ثبات القدم ، وكل من أذل أولياء دولته وأقل كرامة أمراء حضرته ، فلا مناص من مجازاة حقوقه بالعقوق ، ومكافأة أصناف وفائه بأنواع جفائه . رأيتم أنه اختطف ابنتى من وسط الطريق ورجَّس ذيل شهامتى بلوث وضاعته :

لنا ملك ما فيه للملك آلة

سوى أنه يوم اللقاء متوج

أقيم لإصلاح الورى وهو فاسد

وكيف استواء الظل والعود أعوج ؟!

وكان القائد يجرى هذه الكلمات على لسانه ، ومن فرط الحمية تجرى الدموع من مآقيه ، بل كان ينثر على طلعته دماء مهجته ، عن طريق باصرته ؛ فلما أتم الحديث صار جملة الأعيان والأركان متحدى اللسان ، وقالوا : نحن نتغصص من مدة الآلام ، ولا نقوى على الكلام ، وآن الأوان لأن نفضً جعب سهامنا وأن نَقُضً مضجع ملكنا :

إلى متى نتجرع الآلام من زماننا

ولا يحق أن نزن الزمان بجناح بعوضة

فـفـتـح القائـد الكنوز والمدفـونات ونثر الأعـطية والهـبـات فتجـمعت جيوش عفيـة وارتفعت قاعدة قوية ، وباغـتوا الشاه ، وأحاطوه من يمناه ويسراه .

(مثل) رب شهوة ساعة أورثت حـزنا طويلا ؛ فتحير الملك فى حل هذا المشكـل ، وتفكر فى نزول تلك الواقـعـة ، فـقـال لعروسه : هذه الحادثة وليدة عشقك فما هو التدبير ، لأن الزمان بلا إنصاف ، ووعوده إخلاف ، والآن وقد خالف الجيش فليس لهـذا الليل أمل للصـبح ، وليس لهـذه الحـرب وجـه للصلح ، فقالت العروس : إن المصلحة هى أن نفارق حالا الولاية ، ونولى إلى ولاية أخرى فى حماية والٍ آخـر ، فقال الملك : إن المصلحة فعلا ما ترين ، و فأل الخير هو مـا تشيرين ، وفى الخبر : الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين ، وأخبر الحق جل وعلا على لسان موسى الكليم (ففررت منكم لما خفتكم) .

وكـان بقصـر الملك باب مفضٍ إلى الصـحراء مـشيـد تحت الأرض ، فأمر فـأعد له جوادان قويان خاصان ، وفـتحوا له هذا الباب المسـتور واعتلى صـهوة جواد واحـد منهما ، واكـتمى بآلة ضافية من السـلاح ، وأجلس على الآخر العروس ، وتوجه إلى الصحراء فى طريـق غير مسلوك . كانت الصـحراء تتعالى فـيها هضبات الرمال مع شرفات الجبال ، وتتـبارى فيها حشرات القفار مع تماسيـح البحار ، وكـان من عجـائب الاتفاقـات أن العروس

حامل وقد اقـتربت أيام المخاض والميلاد ، وأوان القـماط والرباط وأدخلت أسفـار الشهود وأدوار الدهور الجـنين فى حنين ، وكان الشـهر الـتاسع يطل فى الـطالع ، وكانت الأم المـسكينة فى تلك الصحراء المترامية تتجرع كؤوس الحسرة وتتبلع نحوس الكسرة :

« الحمد لله الذى لا يحـمد على مكروه سواه ولا يطلب رفع البلاء من غيره » .

ويعد أن عـدا الجوادان ثلاثة أيام بلياليهـا وصلا إلى مكان به عين ماء كـان ماؤها فى مـراراته كنوائب الزمان ، ومـا حوله فى كلوحتـه كنابى الثعبان ، وأحـست تلك العروس بآلام الوضع ، على حافة ذاك النبع :

أعد عـدتك فإن الزمـان فى حسـبان

يصيب العشاق بالإخفاق والحسان بالهوان

ويأس الملك وعروسه من حياتيهما فمن خلفهما سنان الأعداء ومن أمامهما رمال الصحراء ، فقالت العروس للملك : إذا كانت وقفـتى اضطرارية ، فحركتك اخـتيارية ، وإن نقص العـالم آلافا مثلى ، فلن يكون كمثل أن تنحنى شعرة من على مفرق ملكك:

حـبيـبى فى مقـام الهم لا تقم طويلا

وأقل كـثـيرا من مـصـاحبـة المحـزونين

فـقـال الملك : يا أعـز من الروح فـقـدت الملك من أجلك فكيف يتأتى لى أن أفقـدك ؟ يمكن إضاعة الملك والمال ولا يمكن التفريط فى المعشوق ذى الجمال :

مع كل هذا الآلام بتوفيق الله خضنا عشقا ولن نسلك سواه

وفى الخبر : المقدور كائن والهم فضل :

لا يـجـــــدر الحـــــــذر مـن الموت فـى يومـين

يوم يكون بـه القـضـاء وآخـــر لا يكون به

فاليوم الذى يكون به القضاء لا يجدى معه التحايل

واليوم الذى ليس به القضاء يحتمل فيه الموت

أبديت الرضا بالقضـاء وسجدت على عتـبة حكم الكبرياء ، وفى الحال ولد طفل بطلعـة بهية وجوارح وجوانح رضـية ، كأن يوسف رجـع إلى العـالم أو أن القمر طلع من مطلع السـماء ، نجدٌ به كافـة اللطافة ، وقدٌ له عامة الظـرافة ؛ فلفت الأم وليدها في قرطة وقال الملك : يا خـليلتى فى محنتى اعلمى أنه لا يجب أن تعقدى مودتك بطفلك فهلمى لكى ندعه بطرف هذه العين إلى عين الله الرحيم ، ونسلك إلى الصحـراء طريقنا القديم ، وفضل الله الذى بلا حـد لن يضيـع هذا الولد فلكل بعـوضة من مـائدة كرمـه جانب ، وكل نملة من خوان إحسـانه راتب (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) ؛ فلما سمعت الأم هذه الكلمات

ألقمت طفلهــا ثديها بنفس كابدة وأنفاس باردة وأرضــعته قطرات يسيــرة وتركته على حــافة البـئر ، وكان مع الشــاه جوهرة قيــمة عقــدها على ساعد طفله وركــب جواده بكبد مـشوية وعين ندية وتوجه إلى الطريق :

وحــال النوى بينى وبين أحبتى فصــيرنى فردا بـغـير حـبيب
فلى نفس مكـروب وعقل مُدَلّه ووحشـة مهجـور وذل غريب

وكانت الأم المسكيــنة بنفس حزينة تمطر الدمــوع وتزفر آهات المفجوع ، وكلما بلغ ســمعها صرخة ظنتــها صرخة من ولدها ، وكلمــا سمــعت نداء ظنتة نــداء من فلذة كبــدها ، وعجــز الملك وعروســه أسيــرين فى يد الزمان الغــادر فشربا منــه السراب بدل الشراب والدمــاء بدل الماء ، واستحــوذ القائد البلاد وأخــذ يفرق الخزائن وينفق الدفائن .

وآخر الأمر بلغ الشاه والعروس بعد شدة كبــيرة ومشقة كثيرة حدود كــرمان ، وكان مــلك كرمان من جــملة كرام الزمــان فلما سمع خبر قــدوم الملك (آزاد بخت) أمر حشمه فرتبوا اســتقباله وأجاز لخــاصته أن يقبــلوا لمراعاته ويهيــئوا له النزل الكريم والمنزل الفخيم :

وأنا نعين الضعيف عند حلوله وعــار علينا عــونه حين يرحل

ولما استراح الملك من عناء الأسفار وطى القفار وزال ضناه وعناه فى مسكن السعادة وموطن الرفادة أمر ملك كرمان فعقد مجلس الاحتفال واجتمع المطربون العذاب ، ولحنوا ، الألحان المكرمون للضيفان .

ولما تهذبت أسباب السعادة وترتبت آلات اللذاذة أرسل إليه ولدا يقول إن الزمان زمان السعادة والسرور ، والأيام أيام البهجة والحبور إذ تعطرت ساحة الإقليم بقدوم الشاه الكريم ، وتنورت خطة الولاية والمصر ، بأنوار كسرى الدهر ، فإن منحنا تشريف جماله حتى نسقى شرابا على مشاهدته لحظة وننسى هم الأيام بوصل الكرام فإن هذا منقبة عظيمة ومكرمة عظيمة :

نحن فى مجلس أنس بك تحقيق مجازه
قد نسجنا الأنس يوما فتفضل بطرازه

فلما حضر ملك نيمروز وسيستان مجلس شراب ملك كرمان رأى مجلس هو من الجنة مظهرا وبستانا هو من الفردوس مذكرا ، وألحانًا أرغونية ومشارب أرجوانية . طار عنقاء المجد فيه ، ودار كأس اللذة به ؛ فلما وصل دور الشراب إلى ملك سيستان أدار الماء فى مآقيه ، وقال : ألا فليبق الله الملك ، كيف يطيق المرء الشرب وبه آلام فراق الوطن وحسرة هجرة السكن ؟ وكيف يستسيغ المدام من كان ملكه فى يد الأعداء والغوغاء ، وخزائنه ودفائنه فى معرض السلب والنهب ، وفى أى جَنانٍ تستقر لذة الجِنان ؟

تذكـــرت نجـدا وغـــزلانه   فهـــاج التـذكـــر أشجـــانه

ومـــا ذاك إلا لأن الصـبـــا   قـضى فـى مـغـانيـه ريـعـانه

فلما رأى ملـك كرمان تلك الحـال وسمع ذاك المقـال قال : قُصْ علينا ما جرى لك من نوازل البـلاء واشرح لنا ما حدث لك من حـوادث القضـاء مع أنه لا يجب سؤال الضـيف الكريم عن سـبب قـدومـه : لا يُسـأل الملوك عن أخـبـارهم ولا يدخل فى أسرارهم ، لكن لأحـوال الملوك مزاجا آخر ولألوان واقـعة الملوك علاجا آخر .

فقص ملك سيستان مـا جرى عليه من عدوان ورصّ أسباب الفـتنة واحدة تلو الأخـرى ، فبـدت في قلب ملك كـرمان رقـة عظيمة وشـفقة جسيـمة وقال : لا يحز بك أمـر فإن إعانة الملك على الملك فرض عين ونحن ممتنون إليك بهذه الاستعانة ومعتبرون سبب بـقاء دولتنا هذه الإعـانة ، وقال القـرآن المجيد (وتـعاونوا على البر والتقوى) ، ولما انقضت شهور عدة أمر بحكم الاقتراح ملك كرمـان بأن يتجه جيش كـالكثبان إلى صـحراء سيسـتان ، فـتملـكوا بغتـة أطراف الولاية والمدن وأوردوا الدمـار بالعـداة ، بالسيوف الخاطفة للحياة ؛ فلما انعدم خصوم الملك وانهزم أعداءه وذل جميع الخوارج ودال عَلَم الأعداء صعدت أرواح المعتدين إلى سـجين ، وهبطت أجـســادهم إلى الدرك الدفين ، وخـرج أهل المدينة عن بكرتهم لاستـقبال ملكهم ، لأنهم كـانوا على وفاء له

وجفـاء لعدوه ، وتقـدموا إليه بسـرور وصدق وإخـلاص ونثروا الأموال الكثار بالإيثار والإكبار على قدمى مليكهم وأجلسوه على تخت القدرة وألبسوه تاج القوة .

ولما سكن الملك مـقر العز والجـاه أكرم جـملة جيش كـرمان وفرق عليـهم الأموال وبعث بالـهدايا إلى ملك كـرمان وازدهرت أشـجـار ورد الدولة ، وشدت بـلابل السـعادة وهطل سـحـاب الإحسان ، وأشرقت شمس الأمان :

بشرى فقد أنجـز الإقبال ما وعدا

وكـوكـب المجــد فى أفق العـلا صــعـدا

وجـعل الملك تخت العـرش متكاه وثـمرات العـدل جناه ، وطَيرَّ بازى الهمة وسيرً عمارة الأمة ، وفى المثل (الإمارة عمارة) ، وكانت الرعـية فى فـرح بأوبته وأهل الولاية فى فـرج بنصفـته ، حكمة: (على حسب الاهتمام بالفقدان يكون السرور بالوجدان).
ولم يقعد بالملك هم خلا ولده الذى تركه على حـافة البئر وفارقه غير هواه :

إذا وقع الـهــجــر بلا مــدافع

فما الذى يمكن فـعله ألا فليكن ما يكون

وللاتفاق لما ترك الملك وزوجته ولدهما على حافة البئر وصله جمع من العـيارين الذين كانوا يقطعـون فى تلك البيداء فـوجدوا

طفلا مودعا على حافة العين فاق آلاف الحسان فى حسنهن وأحال الصحراء ببهاء جبينه أنوارا وجعل عكس عينيه العين أزهارا :

وشـــادن كـالـقـمــر الفـــرد   أحـــسن من نقـــد بلا وغـــد

فلما رأى مقدم العيـارين ذاك الجمال والدلال قال : يبدو أنه أمـير ؛ لأن مـخايل الملك ودلائل السلـطنة تشع من جبـينه وآثار الأجداد وأنوار الاسـتعداد تلمع مـن وجهه ، لا يتـولد مثل هذا الرضيع من أى وضـيع ، ولا يتوجد مـثل هذا هذا الدر الأشرف من أى صـدف (لا يلد الأسود إلا الأسـود) سـوف يكون هذا الطفل أسد الغاب ورجل الحرب والأسلاب، فالتقطه على الفور، فلما رأى الجوهرة الثـمينة معلقة بسـاعده صارت فراسـتـه حقا ، وحملـه فى الحال إلى منزله وأودعـه حاضنة ماهـرة وقال : هذا الطفل هبـة من الله ، فسمـاه هبة الله أو (خـداداد) ، وأصيب الملك بالألـم ظنا أن ولده افتـرسه سبع أو لدغـته هوام أو التهمـته سوام ، ولـم يعلم بأن اللطف الإلهى قد استاق إليه رجلا شفيقا .

وكبر على مر الأيام حتى نما رجلاً شهيمًا وشجاعًا حكيمًا:

مـــاذا تـظن بمالك العـــبـــاد   إنه لا يضيعهم لو تركـتهم له

فعلمـه العيّـار الأدب والعلوم وأبلغه الكمـال فى الفصـاحة والأدب وإتقـان لغـة العـرب ، وكان الأمـيـر دائم الاصطيـاد ، ويقـضى زمنه مع العيـارين فى النجاد والوهاد ، فلـما اكتـملت

شجاعته واشتملت جراءته بعث به مقدم العيارين إلى قطاع الطريق وقال له : يا بنى إن عملنا هو قطع الطرق وحرفتنا هى النهب والسَّرق ، فكان الأمير إذا قطع طريق قافلة كان يستعمل كرمه الطبيعى ولطفه الغريزى ، ويترحم على ضعاف القافلة ، وكان إذا وُجد لدى تاجر مالا فاخرا وملكا وافرا أخذ أقله وأعاد أكثره ،

مثل : عليك بالإنصاف ولو فى الإتلاف :

أجل إن الشهامة أولى فى كل حال .

وحدث أن قطعوا طريق قافلة يوما ، وكان أهلها من الشجعان وأهل ضرب وطعان قد ابتلوا في معارك الحرب أنواع الطعان والضرب وذاقوا الحلو والمر فى ميدان الكر والفر . ولما رأوا السراق لبسوا لباس الحرب واشتبكوا معهم ، فلما اتصلت الحرب انفصلت قلوب اللصوص فرقا من شوكة تلك الجماعة ، فانتصرت على السرقة ، ولما كثرت الجروح بخداداد وقع أسير تلك الجماعة فقيده كبير القافلة بناقة وأمر غلمانه بمراعاته لأنه شاب هو أسد العرين وشجاع العالمين، فقال خداداد: أجل أنا أسد العرين ، لكنى خالطت جماعة من الثعالب فغيرت همة الأسد الغالب إلى دناءة الثعالب ، وبدلت طعمة الشاهين إلى لقمة العناكب ، وكل من ودع الديانة والأمانة أودع حياته إلى مثل هذه الحالة :

إن العفيف إذا استعان بخائن   كان العفيف شريكه فى المأثم

سمع كبير القافلة كلماته هذه فقال : أيها الطفل الذكى أى حرفة حمقاء آثرتها فى هذه الأثناء؟ ألم تعلم بالخبر (من لا يرحم لا يرحم)؟ كيف تليق السرقة بالرجال وأنى تجدر اللصوصية بذوى الإفضال ؟ فقال خداداد : لو وجدت مكتسبا على موجب الأدب والعقل ما سقطت فى أمثال هذه الفتنة وأشكال هذه المحنة (إذا جاء القضاء عمى البصر) لا رد للقضاء الإلهى ولا حد لحكم الآمر الناهى :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

ويعلم عالم السر الغيبى أنى ما آثرت هذه الحرفة بمراد قلبى ولم أطعم لقمة هذا العمل إلا بالكره المملّ :

هل الدهر إلا ساعة ثم تنقضى بما كان فيها من عناء ومن خفض

فلما سمع مقدم القافلة من خداداد هذه الألفاظ البديعة والكلمات الوديعة تحركت بقلبه الشفقة والرأفة فقال : أيها الشاب اللطيف لك روح شريف ولفظ ظريف وقولك روحانى وفعلك شيطاني .روحك الناطقة صادقة ، ونفسك اللوامة علاّمة ، فإن تبت بلغت حد الكمال ودرجة الرجال وأعاون خيريتك وأقبل بنوتك ؛ فقال خداداد : إن عاونت خيريتى صرت لك عبدا خالصا وغلاما مخلصا :

فأحسن : إننى أحسنت ظنى وأرجو أن ظنى لا يخيب

مـثل : إذا ملكت فـأسجـع ، حكمة : علـيك الكظم عند العثرة والعفو عند القدرة .

ففك التاجر فى الحال عنه قـيوده وظلوا سائرين حتى وصلوا إلى سِيسـتان ، وقص التاجر ماكـان من أمر خداداد إلى الملك ، فأمر الملك بإطلاق سـراحه وشنق بقية اللصوص ، وكـان التاجر يعامل خداداد كابنه وكان خـداداد يعامله كأبيه بالأمانة والديانة ، واتفق أن ذلك التاجـر حمل يوما إلى قـصر الملك صندوقا مليـئا بالملابس الحـريرية وأخـــذه خـــداداد وذهـــب به إلى الملك ، فلما وقعت عينا الملك على وجه خـداداد رأى طلعة معتدلة وهيأة مكتملة وقـدا مثل الصنوبر وخدا كالورد الأحمـر : أنوار النجابة من هيـئته لامـعة وآثار المهـابة من صورته طالعـة ، لما رآه الملك تنفس بارد الأنفاس وقال : وا حسرتاه لو كان ابنى على قيد الحياة لكان بلغ إلى هذا الحد والقـد ، ما أعجب الأمر ! الأب يتـمعن في الولد وهو غـافل عن أن هذه الزهرة من روضة نسـبه ، وهذه الشقيقة من جبل طربه . إنه فـرخ يتعلق بعشه وغريب ينتمى إلى فرشه ، كان الملك ينظر فيـه ويسلم عنان التفكر إلى يد التحير ، وكلما زاد فـيه نظرا زاد تحيـرا ؛ فسأل التـاجر : هل هو ولدك ؟ فـقال لا ، إنه من جـملة أولئك اللصـوص ، لكنه الآن من ذاك الفساد تائب ، وطريق السداد والصواب عليه غالب ، وفى الخبر: التائب من الذنب كمن لا ذنب لـه ؛ فقـال الملك : هل بوسعك

أن تهبنى هذا الولد ، وأن تمنحنى هذا الطفل ولو كان مثل ابنك؟ فقبل التاجر الأرض وقال : لو كان لهذا الولد نسب ألف ولد بى لفاخرت بملكيته لسلطان البلدان ولاستظهرت بعبوديته لملك الزمان ، فوهب الملك خداداد وخرج من عنده باستسعاد .

حكمة : إن لله لطائف أحلى من القطائف ، مثل : عش رجبا تَرَ عجبا :

عشنا إلى أن رأينا فى الهوى عجبا

كل الشهور وفى الأمثال عش رجبا

فخلع الملك على خداداد وألبسه قلنسوة الخواص وسأله : ما اسمك ؟ فقال سمانى أبى خداداد ، أما الآن فأنا عبد الشاه ، والأمر له فى أن يسمينى ما يشاء ، فقال سميتك (بختيار) لأن البخت رفيقك والسعد قرينك ، مثل : وصلت إلى دار السعادة فاشكر .

وأخذ بختيار يخدم الملك ليله ونهاره ، وكان الملك بحكم تفرسه الأصلى والتفاته الجبلى يخلع عليه الخلعات ويرفعه درجات ، وأراد الملك أن يمتحنه يوما فى المعاملات وأنواع الدخل والإخراجات ، فأوكل إليه الإشراف على الإصطبل الملكى فبذل بختيار فى ذاك الشغل الكفاية والأمانة حد أنه لم يترك منهما دقيقة ، كان يراقب دوما حظيرة خيول الملك ويشاهد دائما أحوال الإصطبل الملكى حتى كانت الخيول السلطانية والجياد الملكية تزداد ضخامة وفخامة .

وأتى الملك يوما لرؤية الإصطبل فرأى الجياد فى طراوة وحلاوة مختلفة ، سمن منها ما كان نحيفا وثخن منها ما كان ضعيفا عجيفا ، فأدرك أن هذا من أثر كفاءة بختيار ، فخلع عليه فى الحال عباء خاصا به وجعل له إمارة الإصطبل .

مثل : أول الغيث رش ثم ينسكب ، وأخذ بختيار يرتقى سعادة ومجدا وتلقى أحواله الأفضال وتبينت ديانته للملك وتبرهنت بالقرائن أمانته ، مثل : الطيب لا يخفى ريحه ، وقال الملك : إن من اجتمع فى طبيعته كل هذه الصيانة والعفاف وحسن الأوصاف تليق به رعاية الخزانة لا عناية الإصطبل ، فإن الخزانة لا مناص منها لنظم الملك ، والملك به يتعمر وذخائر الأموال بكفاءة أعماله تتوفر :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتًا على الناس حتى عُدَّ ألف بواحد

وأمر الملك أركان الدولة وأعيان الحضرة ليؤدوا إليه التعظيم والتكريم وتسليم مقاليد الخزائن ومفاتيح الدفائن إليه ، وأخذ بختيار يرتب دخل الخزانة وخرجها ويبوب أنواع المحاسبات والمجموعات فلم يكن يعطى واحدا درهما إذا لم يكن معه توقيع الملك ، ولم يكن يفتح قفلا لواحد مالم يجلب معه ختمه الخاص ، فعمرت فى أقل زمان الخزانة ، وتوفرت أموال الخزائن :

إن الرجل الطاهر اليد الأمين خير من آلاف الدر الثمين

وكان مـقربو الحضـرة وخواص الدولة كلمـا رأوه محل نظر الملك يبـرمون به بحكم حسـده ، وكان أمـر بختيـار كل يوم فى تزايد ودولته فى تصاعـد ، كان يشترى العبيـد ويجمع آلة البأس الشديد .

وحدث أنه كان يشرب شرابا فى دار الاختلاء ، ويمنح غلامه الذهب والكساء ، وكان الوقت ربيعا والعهد بديعا موردا مزدهرا ، وكان السحـاب يصب اللآليا والصبا تكب العنبـر والغالية ، وبدأ السـرو المستـقيم بين الريـاض الرقص ، والبط فى قعـر الحيـاض الغـوص ، اكتـسى المكان بالطيلسان الأخـضر ، وارتدى الـزمان القباء الأزهر ، بدت الألوان العجيبة فى الأكوان الغريبة من مسام التراب فى صُوَرٍ غِرابٍ ، وثارت ببختيـار رغبة التريض بالصحراء وتنسم تبسم الوردَ ساعةً والتنعم بتنغم وترنم للبلبل ، وكان ينشد :

اطرب على وجه الربيع الأزهر ... اشرب رحيقك فى جميع الأدهر
فى روضة نظم الغمـام حليها ... مـن لؤلؤ مع دمـعـه المنهـمـر

وكـان للخزانة باب مـفض إلى قـصر الـسلطان وتطل على جانب الإيوان والبـستان ، فخـرج بختيار بحكم الشـمالة من ذاك البـاب فرأى حـجرة مـزدانة بهـا تهاويش الألوان وصـور ثوابت السماء منقوشة على الجدران ، وكان بهذه الحجرة سرير منصوب ، كان الشاه يستريح عليه بعد الغروب ، وبفعل السكر ألقى بنفسه

على ذاك السرير ، وراح في سبات وشخير عميق ، وظنت الجارية أنه الشاه فى نوم، فوضعت غلاية الماء كما تفعل كل يوم. فلما قصد جيش الروم جهة الغروب وبدأت طلائع عسكر زنجبار الظلام بالهجوم والإقدام ، أقفل الخدم أبواب القصر ولحق أصحاب الحرس وقادة الجرس بميادين السماطين دخل الملك الحجرة فرأى بختيار ملقى على سريره الخاص وواضعا رأسه على وسادته ومسنده المتراصّ ، فزعق الملك فى بختيار قائلا : يا شقيا بلا خطر لماذا فى حرمتنا تنتظر ، ولأى شىء جئت ولمن قدمت ؟

أحل الإدبار بجسدك الدمار واحتلك نهار يومك بسوء طالعك

وأمر فقيدوا بختيار وألقوه رهن الاعتقال . حكمة : السكون على الجمر أهون من الركون إلى الخمر. حكمة: السكر أوله شرف وآخره تلف . ما أكثر الرجال الذين ألقى بهم الخمر إلى القعر ومن الثروة والغنى إلى الفقر والضنى ، والصبوح الذى لا يتأتى منه الفتوح خير ألا تتناوله ، والمدام الذى يزول به الاحتشام والاحترام أولى ألا تجرعه .

فلما ألقى بختيار بالسجن توجه السلطان إلى سراى حريمه بقلب حسير وخاطر كسير وغضب على سيدة أهل الحرم وكانت أم بختيار وصرخ فيها اصدقينى القول : ما سبب هذه الفاجعة ؟ إن بختيار لم يقدم إلى هذا الموضع بدون دليل يسابقه ، ولا يمكنه أن يأتى إلى هذا المنزل بلا سابقة ، فقبلت الملكة الأرض وقالت :

أيها الملك من له طاقة هذا الخطاب وإمكان هذا السؤال والجواب؟ اصبر حـتى تظهر مادة هذا الابتلاء وسبب هذا الاجـتراء ، ثم مر بأى عقـاب تراه وأزل صدأ التلـف عن مرآة الشـرف وإذا غضب الشاه عليّ أنا العاجـزة فالأمر أمره ؛ فأمر الملك بقـيد أهل الحرم وقيد بيده سيدتهم ونام بمهجة جريحة بسبب هذه الفضيحة .

وفي اليوم التالى لما حضر أمراء الحضرة إلى الحضرة وجلس جمع الـوزراء ؛ كل فى مقامـه المعلوم بالأمام والـوراء ، ولحقت بهم أيضا طائفة خـواص السماطين رأى الوزراء في صفـحة جبين الشاه آثار التغير والتكدر ، ولكن لم يكن لواحد منهم الجرأة على السؤال عن هذه الحـالة إلى أن استـدعى الشاه إلى عـرشه الوزير الأكبر وكان مقدم الوزراء وأفضل الحكماء ، وقص عليه ما جرى بالبارحة من حوادث فـاضحة ، وكان الوزير يضمر الشر لبـختيار الخير ويسمع مـن النواب والحجاب سعيهم ووشايـتهم ، فقال : حانت الـفرصة لكى ألحق بـه الدمار ، وأمطر على رأسـه عذاب الأمطار . مثل : الدهر فرص وإلا فـغصص ، قال الوزير : أيها الملك إن من له باللصوص نسبة واقتـرابا ونشأ في الصحراء طفولة وشبابا كيف يستأهل قربى مالك الـبرية ويستحق خدمة هذه المعية ؟ إذا غرس غصن الإنعام فى طينة غير طيبة فلن تثمر غير القلق والأرق :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى

مضر كوضع السيف فى موضع الندى

فـقال الملك : اذهب وتفـحص هذه الأحـوال وتمحص هذه الأفعال حتى يميز البرىء من ذى الإجرام فنسلط عليه سيف الانتقام .

فـقـدم الوزير إلى الملكـة ، وقـال : مـا أشنع هذه الحـادثة وأفجـعها والتى نالت من جنـاباتك أرفعهـا فقد تفـتت بها قلبى وكبدى وتشتت بهـا عقلى وذهنى فافصحى لى عن حقـيقة الحال فلربما ظهـر لهذا الفـساد صلاح ، ولهـذا الليل المظلم صـباح . فقالت الملكة: اعلم أنى لا أدرى خبراً عن بداية ما حدث ونهاية، ذاتي من هذه الفضـائح بيضاء وشخصى من هذه الـقبائح براء . فقـال الوزير : إن صلاح أمرك أن تقـولى كل ما ألقنه لك ، وأن تفعلى كل تمويه لتنزيهـك حتى يندفع هذا العار عن ذيل فسـتانك وينقلع هذا الشوك مـن أرض بستانك ؛ فـقالت الملكة : أنت أبى وأنا ابنتك وافـعل كل ما تأمـر به لأنك تغـرض براءة ساحـتى ، وتقصد مرهم جراحـتى ، وكل قطرة تتندى من سحاب عقلك دُرّ ثمين ، وكل نكتـة تتبدى من لفظك اللطيـف حبل متين ؛ فـقال الوزير : صـــلاحك أن أنقل للـملك عنك أن هذا الـولد السىء العنصر كان يقـوم بحركات كرات ولـم يلق بالا لحـرمة حرمك بل يلقى بالـطوب علينا من سطحك ، ويـقـول : إذا لم توافـقـينى فسـوف آتى ليـلا وأضـرب عنقك وعنق الشـاه ؛ فقالت الملكة : لا يجب أن نلوث بريئـا بلا سبب ، ونجعل غـريبا طعمـة سيف الغضب ، وإلا حل بنا جزاء هذا فى العاجل ، ونزل بنا فى النار

مكافأته فى الآجل ؛ فصاح فيها الوزير : إن ابن اللصوص الذى قطع أزمانا طريق القوافل والعابرين ، وانتهت بلا سبب أموال المسلمين كان دمه فى الشرع مباحا ، وقتله فى الدين صلاحا ، وقد أفتى القرآن الكريم فى هذا بقوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يُقَتَّلوا) ؛ فقتله سبب الثواب وهلكه عين الصواب ؛ فقالت الملكة : الأمر لك فإنهم يعدونك مفتى هذا العهد ويسمونك مسيح هذا المهد .

وقدم الوزير إلى الملك وأطلق لسان التضريب فى التخريب وأورد كل نوع من الكلمات فى تأليفه وكل جنس من التخليطات فى أراجيفه وتصنيفه فزاد الملك غضبا وأمر بنصب مشنقة لبختيار لأجل الاعتبار ، وأتى به إلى المجلس ونظر فيه الشاه بنظرة الانتقام وقال : أيها المحتال الذليل فوضت إليك الخزائن الملكية والدفائن السلطانية وآثرتك عن خواص الحضرة وأركان الدولة ، ألم تستح حين بدلت طريق الأمانة إلى الخيانة وجعلت عرضك مستحقا لحبل المشنقة واعتبارا لأهل المملكة ؟ فرفع بختيار هامته وقال : ألا فليبق الله ملك البلاد وصاحب السعادة والأمجاد ، فى هذا المقام الذى أقف فيه الوقت هو وقت وداع الأرواح ، والأوان أوان النقلة من الدنيا والرواح ، لكن هناك كلمة لصاحب الشريعة على هذه الجملة وهى : إن لصاحب الحق يدًا ولسانًا وبما أنى برىء من كل التهم وطاهر من كل جرم؛ فإن لم أكشف براءة

ذمتى فقد سعيت فى إتلاف حـياتى وإسراف ذاتى ، وقد قال الله تعالى (ولا تلقـوا بأيديكم إلى التهلكة) وبـحمد الله فـإن الشاه راعى الرعـايا ومراعى الغـربا قد تزين بسـتان العدل بزلال عـقله ورؤيته وتحلى مرتاض الملك بدينه ودولته ، والسعود السماوية يمينه والمرادات الدنيـاوية قرينه ، نظم الحـشم والخدم بمكـارم الأخلاق والمناقب ، وحل هذه المشكلات والمعـضلات بنور رأيه الثـاقب ، وقد قال تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك):

مكانى من نعماك غـير مؤخّر — وحظى من جدواك غير مُضيّع

وإنى وإن بلغتنى شرف العلى — وأعتقت من ذل المطامع أخدعى

فما أنا بالمغضوض فيما أتيته — إلىّ ولا للموضوع فى غير موضعى

أيها المـلك مر بحبس عـبدك ولا تتـعجل بقـتلى فلعل براءة ساحـتى تغدو للرأى العـالى معلومـة ونزاهة عرضى تصـبح لديه مفهومة ، فقصـتى مثل قصة ذلك التاجر الذى أدبر حظه وانتكس أمره . صـار نهار دولتـه حالك الظلمـة ، وهواء سعـادته دخان العتمة ؛ فقال الملك : وكيف كانت قـصته ؟ فأطلق بختيار لسان الفصاحة وطير عنقاء البيان القادر وبدأ حكاية ذاك التاجر .

الباب الثانى

قصة التاجر الذى أدبر حظه وانتكس أمره
وفى ضمن القصة عبر للعقلاء وحكم للفطناء .

قال بختيار : أدام الله الملك ، حكوا أنه كان فى العهد الماضى تاجر بالبصرة صاحب نعمة كريمة وثروة عظيمة ، ملك مالا وفيرا وجمع منالا فاخرا ، وكان دائم التجارة واكتساب الثروة ، وكان يقضى سنينه وشهوره فى التجارة فى الأمصار والثغور ويظهر عند إقباله وحظه وجَدِّه السرور والحبور ، وبما أن سفر البحار أكثر نجاحا وتحمل الأخطار فيه لتحصيل الأوطار أكثر إرباحا فقد كان يقص مقال « جاور ملكا أو بحرا » ، ويتلو مثل «من قصد البحر استقل السواقى» ، ويمضي زمانه في رغبة الشباب وشراب الشراب ، وكان لربيع مراداته طراوة ولأشجار لذاته خضرة ، تفتح في روضة حياته فم ورد السعادة ، وتفتق على غصن لذاته لسان عندليب الغبطة :

دعوت المنى ودعوت العلا فلما أجابا دعوت القدح
ذا أدرك المرء آماله فليس له بعدها مقترح

وحدث أن شـوش مكر الفلك وشعوذة الـزمن الحلك أحواله فصارت تدابيره الصائبة خاطئة خائبة ومساعيه الجميلة خابية نابية، أحرق خـريف حوادث الزمان ورق جـنة مراده ، وأزهق خفـقان تحير الحدثان أنفاس روضة مرامه :

الحـر فى نوب الأيام مـعتبـر والدهر فى حالتيه الصفو والكدر

فبـهت التاجر حائرا وفكر وقـال : إن أمرى هذا لابد له من تدبير ومشكلى هذا لابد له من تفسير ، وأتى فى الخبر (ما خلق الله تعالى داء إلا وله دواء) لكل داء دواء ولكل حادث انطواء ، قال لنفسه : كـان لى لسنوات عديدة فى أطراف العالم تطويف ، ولنقـد الحقيـقة والمجـاز لأوقات مـديدة تصريف ، وآخـر الأمر حاصل الزمان خواء وناتج الأيام فضاء :

قلت لنفسى : أين صـارت تلك النعمة والدلال

وأين سـارت تلك السـعـادة والإقـبـال

فـقـــالت : ذهب الجـــمـــيـع فكيف تـعــود

وأنا الأنين والأنـات والليـالـى الطوال

وبما أن الأخطار والمشاق لم تعد سبب المرابحة وأسفار العراق لم تصر مـادة المسامحـة وغدا قرينى هو الفـلك الغدار وقلب لى الدهر ظهر المحن فالأولى أن أوثـر زاوية السلامة والمداراة وأجلس بركن الاعتزال والمواراة :

خليلىّ إن الدهر ما تريانه فصبرا وإلا لاشيء سوى الصبر

عسى الله أن يجعل لنا منه فرجة يجيء بها من حيث ندرى ولا ندرى

يعلم العقلاء أن ليس من مدام صاف بلا خمار ولم يقض عاشق ما وصله سعيدا إلا وذاق بعد ذلك آلام الهجر شديداً ، وقاسى من محن الفراق عديداً ، وكل من له بالدقائق العجيبة للزمان اطلاع ، ومن حضيض خسة البهائم إلى درجات أصحاب العزائم ارتفاع ، فإنه يطالع من الزمان فى كل لحظة ربيعا وازدهارا ويراعى منه فى كل لمحة صيفا وإقفارا ، وقد قال المصطفى عليه السلام : الدنيا دار زوال ولا تدوم لأحد على حال إمّا نعمته زائلة وإما بليته نازلة :

لنا من أهل الدهر آمال طوال نرجيها وأعمار قصار

ومن أهل المنازل غير ركب مطاياهم رواح وابتكار

قال : المصلحة أن أسكن سواد البصرة وأختار الرفاهية والراحة وأتَنَصْنَص فى دفع محنة الزمان ، وأتربص بهذه البقية التي بقت ، وأقضى أيامى بحمرة شفق وسد رمق ، حتى لا ترتفع فى بقية عمرى هذى ستارة عفافى ولا تنقطع فى نهاية حياتى هذه مادة كفاحى :

من عفّ خفَّ على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه يتثقل

وإن مدّ العين إلى كاسه الرجل وكيسه هو زرع بذر إدبار المرء وذلته ولا يحق له أن يرمى بنفسه كالذباب على كل كاس ولا يجب له أن يجعل نفسه كالقذى على عين كل الناس ، بل عليه أن يكون كالورد والبلبل ، فالورد بلونه وشذاه رَوّح كل جمع ، والبلبل بلحنه ونداه راحة كل سمع :

كن كالورد فى روضة وصل العشاق

أو كن كالبلبل يصدح أعلى شجر الورد

فاشترى التاجر بما بقى من مال مؤونة ، وقال : حاجة الخلق بالطعام والأكل أكثر من أى سلعة أخرى ، والمؤونة تعز فى فصل الربيع وتصبح فيه الأهراء خواء فلعلنى أحصل من هذه المؤن منافع كثيرة واعتنى أن يصلنى منها مرابح كبيرة ومكاسب غزيرة :

إذا لم يبق للقائظ رجاء وأمانى لم يبق أحد ثابتا فى هم الزمان

كان يقضى الصباح والمساء فى لعل وعسى ، وللاتفاق بالتقدير الإلهى وقضاء الآمر الناهى لما أتى الربيع رَخّص المآكل وخَفّض المطاعم وغدت أنواع النعم بلا حد وعد ، فلما تدبر التاجر أمره رأى باقى ماله مستهلكا ووجد نفسه لجور الفلك مهلكا :

آلام الدهر منزلها مأؤنا وطنيننا

وحيثما ظهرهَمٌّ تعرف إلى قلوبنا

حار التاجر فى أمره ، لم يطاوعه قلبه فى أن يبيع بضاعته بخيسة رخيصة ، فقال أصبر للعام القادم ، فلعله يرفع الأسعار ، وينيلنا المستقبل الأوطار ، وفي العام التالى بالتقدير الإلهى واللطف غير المتناهى بدا من الخصب والنعمة والرَّوح والروحة من طينة الأديم وسكينة السديم ، حد أن كل شوكة غدت ريحانة وكل قذى صارت أقحوانة ، وكانت الشمس لا تزال بحانوت الحوت ، فارتدى العالم قباء أخضر من يد اعتدال الزمان الأزهر واجترع كل نبات شربة الحياة .

فتبرم التاجر من هذا المشكل الغادر ، وقال : إن بيع البضاعة بالخسارة ليس من البصارة ، والأولى أن أقصر يدى عن تصريفها وأحتفظ بالغلة في تجويفها ، وفجأة تسلل الماء إلى أهرائه فأصيبت غلاله بكل ضرر ونال جميعها العفن ، فأطال الناس الطعن واللعن ، فكان عليه أن يدفع مبلغا من المال تكلفة جمع هذه الغلة المعطلة المعفنة وحملها ورميها بالصحراء (كطالب القرن جدعت أذنه)

اسمع طرفة مثلا لما حدث لنا

ذهب حمار ليأتى بقرنين فأضاع أذنيه

وصارت هذه المحنة علاوة على خسارته وإضافة إلى ميزان قساوته ، وحين كان الناس يرونه يلقى بتلك الغلال خارجا كانوا يلعنونه ويسبونه ، فكان أحدهم يقول : وجه المُخَزِّن شوم ،

ويقول آخـر : انتظار القحط والغلاء غاية اللوم ، وقـال الرسول عليه السلام (المحـتكر ملعون) فحار التاجـر وتخجل أمام الناس وتسجل كفره عند أهل الإيمان فأخـذ يجرى هذا البيت على لسانه ليل نهار :

لماذا أهدر الـعـمـر فى التـحـايل

إذا كنت لا استظهر على حظى العاثر

فـأدرك التاجـر أن تدبيره ذاك لم يصب الصـواب ، فجـمع مالديه من مـال محـقر وتوجه إلى جـانب البحرين بـصدر يملؤه نعيب غراب البين ، وقال : ألعب لعبـة أخـرى فإما أن أنتفع بها أو أفتـجع منها ، حكمـة : إما الملك وإمـا الهلك ، ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر .

الخلاصة : وافق جـماعة من الرفاق ورافق جمعـا من التجار وركب الفلك وسلم زمـام ناقتـه إلى يد المسـاء والصبـاح وأسلم بالليل والنهار سمعه إلى صوت الملاح :

جـعلنا الزمـان راحلة أسفـار   تتـرك القـفـار وتنزل العـمـار

ولما انقضت ثلاثة أيام بلياليها هبت فجأة ريح نكباء من مهب القضاء وتحطمت ألواح السفـينة كألواح موسى وتألمت أرواح أهل السفينة كـأرواح بنى إسرائيل ، ولم يعد للسـفينة أضلاع أو أرباع ولم يعد لساريها شقة أو ارتفـاع وغدا أهل السفينة طعـمة المنون

وتمسك ذاك التاجر بلوح خشب ، وكان مـرة يتزلزل فرقا من صياح التمسـاح ومرة يتململ خوفا من الحوب فـيلتمس الدعاء والقنوت ويتلو قـوله تعالى (فـإذا ركبـوا فى الفلك دعوا الله مـخلصين له الدين) وعلى سطح لجـة البـحرين جـعل الريح لوحـه الخشـبى كالخـذروف في يد الصبى ، أو كالخروف فى فم الضـرى ، وكان يلقيه كل لحظة من مكان إلى مكان ويرمـيه فى كل برهة من عالم إلى عالم ، وكان التاجر مع نفسه فى نداء و نجاء وهو بين الأرض والسماء قائلا : لو كان لى من هذا البـحر نجاة وبهذا العالم يوم حياة لرجعت إلى الأهل والعشير ، ورضيت فى كل يوم برغيف شعير :

لو أزاح قلبى عن نفسه غبار أحزان هواك

مـا طرق بـاب عـشق أحـد سـواك

وبآخر الأمر بعد أمد مديد وعهد بعيد هبت ريح يوما وألقت بالتاجـر برا ، فتـوجه التـاجر إلى العـراء والصحراء ببـطن خاو وجسد عار وقلب ضعيف وقالب نحـيف حتى يجد مغيثا أو يلقى أنيسـا ؛ فلما سار يوما وليلة صـادف جبلا ألقت لطافة خـضرته عكس صورتها على السماء ونشرت نفـحات نباته نكهة العنبر فى الصحـراء ؛ فقال التـعريج إلى هذا الصوب أقـرب إلى الصواب فاتجه إلى هذا الجبل بقلب يملؤه الأسى والوجل .

وإذ بقرية تظهر له فرآها موضعا ذا نعمة ومحلا ذا نزهة ، صحيحة الأديم ، عليلة النسيم ، ضاحكة التراب ، باكية السحاب ...ماؤها من أثير ، وترابها من عبير ، ورأى وسط القرية قصرا بديعا ، وإيوانا رفيعا ، ومعارج وسقفا وسررا وزخرفا وصاحب ذاك القصر دهقان منعم وسيد مكرم جلس على شرفة واصطف أمامه الخدم والحشم فوقعت عين الدهقان من أعلى الشرفة على التاجر ورأى ذاك المرحوم المحروم وشاهد آثار الكربة وغبار الغربة على محياه فناداه من أعلى شرفته وأخذ يستفسر منه عن أحوال أوقاته وأحداث نقلاته ، فكان التاجر يحكى قصص الغصص ويثقب دموع مقلتيه بأسنة أهدابه ، وكان الدهقان يظهر من عجائب البحر ونوائب الدهر استعجابه ويبدى من حوادثه العجيبة ونوازله الغريبة استغرابه ، ويبرز شفقته بهذا التاجر المضرور والحيران المهجور ؛ فأمر فى الحال فأعد له مقام كريم وطعام هضيم وهيئ له الفاخر للباسه بل علاج إفلاسه ، وظل التاجر فى إرم كرم هذا الكريم وفى ائتناس وبعد محنة الليالى بذاك النعيم المتوالى فى نعاس :

نزلت على آل المهلب شاتيا

غريبا عن الأوطان فى زمن مَحْلِ

فمازلت فى إكرامهم واصطناعهم

وإنعامهم حتى حسبتهم أهلى

رحم الله كـريما قابل الغريـب بالترحيب وأزاح بـكم مروءته الغـبار عن وجـهـه الصفـار . إن النعمـة التى لا تكون مـرهم مكروب هى نعمـة على شرف الزوال والمال الذى لا يصير شـفاء محروم فهو مال وبال :

لا يقـــر قـــرار قلب بمـالك فاعلمن أن الزمان مختطفه من كفك

بتِّر مـال البخيل بحـادث أو وارث . مال البخـيل إما هدف لسهم الحوادث أو علف لوارث ، أما ثروة أهل الكرم والجود فهى باتفاق العالمين واجـبة الوجود ، مثل : من جـاد ساد ، حكمة : الجود من كمال قوة الإنسانية فى قبول أنوار الرحمانية .

القصة: أودع ذاك الدهقان إليه وكالة الأسباب وإيالة الأرباب وقـال له : وجب إشرافك على دخـل الزرع والضرع وتصـرفك على ناتج الصحارى والبرارى ، واتفق أن ظهر فى ذاك العام دخل بلا عد وغلة بلا حـد وزال ما حدث من خلل بالسعـد السماوى واللطف الربانـى ، ولما حل جـرم الشـمس من أوطان الســرطان بجسد الأسد ، انعقـدت الحبوب فى سنابلها واتصلت اللبوب فى منازلها ، وأحصى التاجر حساب حق سعيه فوجد فى أجرة عمله كثرة وفى مرسوم شغله غبـطة ، ففكر فى نفسه فى أن الدهقان ليس عليه أن يبلغه تمام أجره والمصلحة هى أن يحتاز بدون علم الدهقان حق سعيه بنفسه وألا يحرم نفسه بنفســه فإن أعطاه حق عمله غير منقوص ، أعاد إليه مـا احتبسـه من حصوص ، وإذا لم يعطه نجـا من غصة

فوت الحصة ، وفى آخر الأمر لما جمعت البيادر ومسحت الأرض من الغلال جمع التاجر أجرته بتمامها وأودعها غارا .

ولحظه العاثر اكتشف لص ذاك المودوع فأتى بالليل وجمع سائر تلك الغلة وذهب بها :

حينما يتكدر زمان الرجل لا يفيده فعل ما فعل

فلما وصلت الغلال إلى أهراء الدهقان رأى كثرة الدخل فأمر بإعطاء التاجر أجر عمله فأرسل إلى وثاقه من أنوع الفواكه والأثمار أضعاف المعهود ولوازم الجود ، ولما رأى التاجر هذا الإنعام التام قبل الأرض بدافع الإنصاف وقال للدهقان : أدام الله السيد الدهقان . لم يدر بخلدى أنه فى بسيط العالم من يماثلك فى الكرم ، فكل همتك إكرام وإنعام ، وكل مقالتك بذل و فضل ، وكان غالب ظنى أنك لن تجزينى حق مسعاى ولن تكافينى وفق مبتغاى ، فاحتزت أجرة عملى وحبست تلك فى غار جبلى ، وبما أنك لم تمنعنى شيئا من إفضالك ونوالك ، فأنا سائر الآن ومحضر تلك الغلال ، ومودعها إلى قابض الأموال ، ولم يكن يدرى بذاك الذى سبقه وسائر المال سرقه :

عذلت بنى عمرو فطال لهم عذلى
لعلهم يوما يفيقون من جهل
يعافون إلا من عقول مريضة
وكم من صحيح جسمه إلا من العقل

فلما غادر التـاجر إلى الجبل لم يجد حـبة غلة ، وحين بلغ الخبر الدهقان تغير على التاجر بسبب الخيانة وتأثر منه بحكم ترك الأمانة ، فأمر باستخراج جـميع الغلال منه وإخراج التاجر بأنواع الذلة من الحلة ، فاتجه التاجر بلا شراب وطعام وبدون راحة ومنام إلى بيداء الخذلان وصحـراء الخسران ، وكـان يقول لنفسه مثل : يداك أوكتا وفوك نفخ .

وفى نهاية الأمر وصل سـاحة البحر ، ولما رأت جـماعة من الغواص ذاك التاجر عرفوه . كدر غبار الغربة طلعته وشوشت آثار الكربة حالته ، فـقالوا ماذا جَدّ لك حـتى سرت فى الدنيا بلا زاد وراحلة وبكل مشـقة ونازلة ؟ فقال : قصـة محنتى طويلة الإزار وطريق بليتى له ارتفاع وانحدار :

ألا مـوت يبـاع فـأشـتـريه　　　فهـذا العيش ما لا خـير فـيه

وأخذ التـاجر يقص ما جـرى له من محن الزمان ويقـول ما حدث من بلايا الحـدثان ويثقب بسن أهدابه لآلئ مـدامعـه ويزفر أنفاس فجائعه وفظائعه :

وكانت يد الأيام تقـبل إمرتى　　　فصارت يد الأيام تنقضنى نقضا

وقال تعـالى : (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) ؛ فـترحم الغواص على حـاله وقالوا : لابد من مـراعاة هذا الحـر ومكافأة سوابقه ؛ فـاتفقوا حين يغوصون فى البحـر أن يعطوه ما يجدون

من غث أو سمين وحقير أو سمين ، وشاء الله أن يستخرجوا ست حبات من الجوهر الناصع الثمين كل منها تليق بخزانة السلطان وتجدر بتاج ملك الزمان فأعطوه هذه الجواهر وأخذها فظهر فى روحه ارتياش وفى جسده انتعاش ؛ فقد حصل ثانية على مادة السعادة وروح السيادة ، ووجد ماهو مطلوب العيش ومرغوب المعيش ، وقال : أكتسب ربيع معيشتى طراوة وأجتلب مرير عيشتى حلاوة :

الحمد لله على إحسانه قد رجع الحق إلى مكانه

المنة لله أن بعد الهجر الطويل وافانى من المجد وصل أصيل

القصة : وتوجه صوب مدينة البحرين بقلب سعيد ، وتصادف ترافق جماعة من اللصوص له فحار التاجر خوفا من موافتهم واحتار فرقا من خطر مصاحبتهم ؛ فقال فى نفسه لا مناص من مداواة حظى الشقى وطالعى الردى فإن علم رفاق الشوم وحرفاء اللوم هؤلاء بجواهرى فسوف يسلبون سائرها ويهدرون دمى إثرها ، وكان يخفى الجواهر داخل فمه فأخرج منه جوهرتين وأودعهما جيبه وفتح عينيه لأعاجيب الغيب ليرى ما تتمخض عنه الليلة الحبلى ، وما يتربص فى أكناف الزمان من بلا :

لى حظ غير موافق وجائر ينظر إلىّ مع الزمان الدائر

ولما انقضت بالتاجر فترة قصيرة أصابته سعلة مباغتة شديدة فقفزت الجواهر من فيه ، فلما رأى اللصوص ما جرى من حال قاموا بتعذيب التاجر فى الحال ، وقالوا : سقط ما كان فى الحلق ويجب أن يسلم جميع ما بالدلق ؛ فلما أكثروا ضربه ولم يظهر لهم شىء قيدوه وخلوه راحلين وصدق عليه مفاد هذا البيت :

خليلى إن الدهر ما تريانه

فصبر وإلا لا شىء سوى الصبر

ومن عجب أنك لا ترى بالزمان

إلا زهوراً طبعها كله شوك

وكان التاجر قد غُيِّب وعيه من شدة التعذيب وذهل عن فقدان مقصوده من فرط التغييب ، وكان أحد الفلاحين مارا بجانب المدينة فلما رأى التاجر خارا على الرمال ساحا من عينيه الدموع الوبال يقاسى الريح الصقيع ويعانى نار الهم المريع ترجل الفلاح من فوق حماره وضرب وجه التاجر ببعض الماء حتى أفاق ، ورأى الفلاح وأجهش بالبكاء ورجاه أن يحمله إلى المدينة فإن اللصوص قد سرقوا ماله ومناله وتركوه رغم الغموم والهموم ؛ فأجلسه الفلاح على دابته وأسرع به إلى المدينة ، فلما رأى التاجر المدينة جد عليه راحة الجنان وصار بمنأى عن إزعاج الزمان وقال : الحمد لله فلا يزال معى جوهرتان ثميتان أبيعهما وأستغنى بثمنهما

وأجتنى العيش بثمراتهما ؛ فتوجه إلى السوق في الحال عند باعة الجواهر ، وأخرج الجوهرتين وأعطاهما لبائع عجوز ؛ فلما رأى البائع تلك الدرتين البهيتين تلمعان من صفاء جوهرهما وتميعان من غاية ضيائهما ونورهما وبهائهما أخذ بخناق التاجر ، وقال : أيها النجس الرجس لقد سرق منى مال عظيم به هاتان الجوهرتان فقر واعترف ماذا فعلت بمالى وإلام ذهبت نعمتى وثروتى ؟ فاستيق التاجر بأنواع القهر والضغينة إلى دار القاضى ، فأوكله فى الحال إلى الموكل بالحبس ، وقيل للتاجر : أعد للتاجر ماله بوجه اللطف حتى لا يسترد منك بوجه العنف ، وتلقى زمانك الجفاء والضراء ؛ فشرح التاجر لهم ما جرى له من حال وما فات من مال وما قطع من المنازل ، وما لقى من النوازل فلم يصدقوه وأرسل المسكين إلى السجن وقيد بالقيود والأصفاد ووضع التاجر رأسه على ركبة الحسرة وأسلم جسده إلى محل تحمل المحنة ، وانحبس فى أسجان الأحزان وأيس من الحياة واللذات :

قالوا حُبِسْت فقلت ليس بضائرى ... حبسى وأى مهند لا يغمد؟

وذات يوم قدم أحد أولئك الغواص إلى الحبس لكى يزور صديقا ويحتال لخلاصه واستخلاصه طريقا ، فرأى التاجر محبوسا ومأيوسا ، انتحى ناحية من السجن وأدنى جنبه إلى أرض الحزن وأجرى من عينيه دموع الشجن ؛ فلما رأى

التاجر الغواص ناداه : يا حبيبا من الأحباب وأخا للتجارة والاكتساب أغثنى وأدركنى :

أرهق نفسك إن استطعت وانهض وتعال مابى من تعب

فقال الغواص : ما سبب حبسك وموجب نحسك ؟ فقص عليه التاجر ما جرى له ؛ فقام الغواص فى الحال إلى رفاقه وقال لهم قوموا لكى نخلص ذلك الفتى من محبسه ونختص بإنقاذه وإطلاقه وقد جاء فى الخبر : (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) :

إن فى الأسر صبيا دمعه فى الخد صب

هو فى الأسر مقيم وله بالشام قلب

فأتى الغواصون إلى والى المدينة وقالوا : هذا التاجر مظلوم ومرحوم ومن السعادة والراحة محروم ، وكان من قبل من أصحاب النعمة وأرباب الثروة يلقون منه الحرمة والدولة ، ولكن شطرنج مراداته مات شاهه ، وصار طعمة الحوادث ماله ومناله وجاهه ، وهاتان الجوهرتان حلاله وماله ومناله ، وذاك بائع الجواهر ظالم وطرار وقاس وغدار ؛ فألقى الوالى بالبائع فى السجن وأطلق التاجر من الحبس واعتذر له بالأعذار الوجيهة وقال : من يسمع يخل والحر بالعفو لا يبخل ؛ فلما رضى التاجر أمر الوالى بنقله إلى الحمام والخلع عليه والإكرام :

لا تجزعن بما يأتيك من نوب فإنها دول لا شك تنتقل

وأخذ أمير المدينة يأمر في حق التـاجر عنايته الكاملة ورعايته الشـاملة ويقـول هذا الرجل عـاين شعـوذة دورة الأيام وشـربات حـوادث الأعـوام ويليق به قـربى حضـرة كل سلطـان ومنادمة أو مخالطة كل ذى سلطان ؛ فأعطاه الخزائن الخـاصة وأداة مفتاح الدفـائن ، فانتظمت أحـوال التـاجر وانهـضمت نوائب حـوادثه واحتال وجهه الأصفر أرجوانيا وتحول عهده المظلم نورانيا ، واتفق أن جلس يوما في الخـزانة فانهار جـزء من الأرضية فنظر التـاجر فرأى شق فأر أفسد الجدار فرام أن يصلحه ويقيمه فسقط جزء من الجدار وانفـتح على منفـذ قصـر الحريم ، فلم يكن التـاجر ينظر إلى تلك النافذة ، وحدث أن كان الملك جالسا مع إحدى حريمه، عقد عقد الوصال بصاحبة الجمال ، فوقعت عينا التاجر على حرم الملك ووقع نظر الملك على عين التاجر فاستدعى خادما في الحال وقال انظـر من الذى ينـظـر بنظر الخيـانة إلى حرم دولتنا واقتلع في الحال عينيه النرجسيتين ، واسمل عينيه الأثيرتين ؛ فجزاء أهل الخيـانة أحرى وحد (العـينان تزنيان) أجـدر ، وفى الحال أوقع الخادم بالتـاجر واقتلع باصرتيـه ، وهذا كل ما تراه من آثار حظه العاثر وأنواع طالعه الدابر :

كان الزمـان الغادر والحظ الـعاثر

يربضـــان ويـكمنان له عـلى الدوام

جـــافـــاه الزمـــان حـــتى إنـــه

أتلـــف عـــينيـــــه المنـــــيـرتين

ثم قـال بختـيار : اعلم أيهـا الملك العظيم الذى يأتمر بأمـره الفلك القديم أنه لا أحد قط يغلب مكر الزمان وخداع الفلك ذى الشنآن ، ومثال حالى مثـال ذاك التاجر الذى نسج الحدثان خلاف مراده ولعبت الأيام ضد استعداده ، وشرط كرم الملك هو أن يغفر لمن أتعبته النوائب وضربته المصائب ، وألا يعجل فى قتل المظاليم فلعل براءة ذمـتى تظهر وسـراج فراغ خاطرى يزهر ، ولـمـا انتهى الملك من سمـاع تلك القصة كـانت الشمس قد توسطت السـماء فأمر بتقييد بختيار وإلقائه بالحبس وإيداعه للحرس .

وفى اليوم التالى حين غدت صفـحات العالم مزرعة ياسمين باصطناع النيـر الأعظم ، وصـارت شرفـات الأمـاكن فى البهـاء والضيـاء مرج الصقـر والهيثم ، ووشى شـعاع زينة العـالم الدنيا بزهره الأصفر ، وحَلّى التماع نقـش الدنيا العالم بورده الأحمر ، جلس الشـاه فى صدر الإيوان بالبـلاط وحاك قـصة بخـتيـار مع الوزير الثانى بسم الخـياط ، فقـال الوزير : أيها الملك ذرنى وهذا الولد أهلك بأسه بأن أفـصل رأسه أو أغرب مشرقـه بأن أشنقه ، حتى يكون للعالمين عـبرة وللمفسدين موعظة ؛ فـأمر الشاه بشنق بختـيار ، فلمـا أتى به إليه قـال الشاه أيها الغـلام اللعين والولد الفاسد الدين لقد أمـرت بشنقك لأن إهلاكك مصلحة ، وإفناءك محض الحكمـة ؛ فأعاد بخـتيـار القول : ألا كانت حـياة الملك رديف السـيـادة وأليف السـعادة حـينمـا وضع الحكمـاء الأوائل

وأصحاب الفضائل السجون للملوك وضعوها بحكمة كلية لمصلحة اصلية وكل من سجنوه وراء القضبان سلبـوه فوائد الحياة والحيوان وصلبوه وقتلوه فى الحـقيقة أمام الأعيان فـلا تعجلن بقتلى فليس أمامى للهرب مـجال ولا مناص واحتيال ، ولعل مـا حدث لبائع الجـواهر قد بلغ سـمع الملك الذى استعجل وتعـجل حتى أصابه ما أصابه وعاين من متاعب الزمان ما عاين ، فقال الملك ، احْكِ ما جـرى له ، وارو ما طرا له ، فأطلـق بختيـار لسان الفصـاحة والدراية ، وشرع يبدأ الرواية .

الباب الثالث

قصة بائع الجواهر وأنواع مقاساته وألوان بلياته
التى فى الكتب مسطورة وبالدفاتر

مذكورة ومشهورة

قال بختيار : كان عالم بالجـواهر ذو نعمة بلا قياس ، أستاذ عصـره فى معـرفة الجـواهر ونادرة دهره فى تقويم اللآلئ الـكبار وحلى البحـار ، كان يفـصل الصحيح منهـا من الفاسـد ، ويميز الرائج من الكاسد ، وكان لهذا الفتى امرأة عفيفة وشريفة أمضت أيامها فى خدر الصلاح وستر الفلاح وتوشت بحلية الجمال وحالة الكمال وقد حملت المرأة من زوجها بائع الجوهر والنفيس ، وبعد مرور شهور توقـعت الولادة والنفاس ، واستدعى ملك من ملوك العهـد والأوان وصاحب دولة وعلى الأمراء الكـبار سلطان بائع الجوهر هذا إلى حضرته لكى ينتـقى جواهره ويعاين أدراج ذخائره فيفصل منها ما يجدر بالإنفاق ويعين منها ما يليق بالاكتناز ، فقال بائع الجوهـر لزوجته : حين يدعـونى إليه ملك مـكرم وصاحب دولة منعم فيجب اغتنام هذا الاحتشـام فهو تقريب سبب سعادتى

وترحـيب موجب سـيادتى ، فـيـجب أن ترعى دخلى وأسبـابى وتعتنى بمالى ، ومنـالى وإن أتاك ولد سمّيـه بحكم الفال والأمل فى حـسن حال (روزبة) ، وإن أتتك بنـت سمّـيهـا باسم لائق وإطلاق موافق ؛ فسـفرى هذا سبب الظفر ورحلتى هذى مـثمرة البركة ، وقال النبى عليه السلام (سافروا تصحوا وتغنموا) .

يسافر القمر حين يصير بدرا

فعقد بائع الجوهر الأحمال وربط الزاد والراحلة ، وأخذ يطوى المنازل والمراحـل كالنجم السيار ، ويجوب الممـالك والمسالك كالسياح المسيـار حتى وصـل إلى حـضرة الملك وقـبل بلاط هذا المليك . فلما رآه الملك فى هذه الصناعة ذا ارتفـاع وعلى دقائق هذا العمل ذا اطلاع قـربه إلى حـــضـرته، وظل الرجل ينتـــقى درر الغـرر والجـواهر الزواهر ويزجى للشـاه الحكايات الـلطيـفة والأسـمـار الظريفة فظـهر فى طبع الملك أنس بنفسـه المؤدبة وأخلاقـه المهذبة فأمره بصياغـة تيجان مرصعه وصناعة أحزمة عجـيبة ومصنوعات غريبة ، فكان يهاديه بالخلع ويوافـيه بأجرة عمله زائدة عن أمله . لكن الرجل مع أن الحظ كـان مساعـده والجد كان مـعاضـده كان مشغول القلب بزوجته وولده انشغـالا عظيما ، وكان مهموم الخاطر لأحول أهله همًا مقيمًا :

تركت وصال ليلى منذ حين حذار البين لو نفع الحذار
فليت الود يجمعنى وليلى وأن كانت تفرقنا الديار

ومن اتفاقات الدنيا أن وضعت زوجته ولدين كالجوهرتين من بطن واحدة ، وكأن هذين التوأمين قران السعدين ومظهر النجدين كلاهما درتان لهما بهاء وجوهرتان لهما ضياء ، غصنان مثمران وكوكبان زاهران ، وأرسلت الزوجة رسالة وأزجت بشارة بأن الحق جل جلاله وعم نواله أعطاك ولدين عبهرين جوهرين كلاهما فى جماله بديع وفى لطف صورته باعتدال الربيع ، وسميت الأول (روزبة) والثانى (بهروز) ، فثارت بالوالد تمنى لقاء ولديه فلما أتم العام أعد الأسباب للإياب إلى الموطن وطلب أمر الملك له بالمظعن ، فلم يسمح له الملك ، فشرح له حكاية زوجته وولده واشتياقه لفلذة كبده ، فقال الملك أرسل رسولا يأتى بهم ولن يضن بأى نفقة له ولو كانت أضعافا ؛ ففكر الرجل وقال: مع أن إحسان الملوك بلا حدود وألطاف السلطان بلا عد ، إلا أن فى خدمة الملوك القاهرين أخطارا ، حكمة : إياكم والملوك فإنهم يستعظمون رد الجواب فى الخطاب ويستحقرون ضرب الرقاب فى العتاب :

فى خدمة الملوك أخطار عظيمة
لا يمكنهم الإبقاء على أحد من أجل منفعتهم

ولو صـــار عـقلـك ســمــــرا فى العــــالم

فــلا تأمـــن جــــمـــــرات جنـــــونـهم

وفـراق الأولاد والأتراب وترك البـلاد والأسـباب مـشكل ، ولو يصير للغريب شأن عـال وهو نفسه على مراداته وملذاته والٍ ، لكن بما أن ليس له فى حــالٍ أحداث العالم مـسـتـغاث ، وبما أن سروره وحــبوره مُطَلّق بالـثلاث فلا يمكـنه ترك حياتـه ودار أمانه وأسبابه وعهد إخوانه :

وأول أرض مَسّ جلد ترابى

ولا يمكن فـصل القلب عن مـسقط الـرأس ومظهر الرجـاء والبأس ، لما هاجـر عمـار بن ياسر من مكة إلى المدينة ، فـسأله سيـد الكائنات عليه الـصلوات والتحيـات يستـخبـر حال مكة : وأرضها : قال عليه السلام: كيف تركت مكة وبطحاءها ؟ فقال: تركتها وقد اخضرت أشجارها ورق ماؤها وصفا هواؤها ، فقال: دع القلوب تقر ، قال يا عمار لا تـفصل القول فى وصف جمال مكة بأكثر من هذا فقد استقرت نار القلوب الآن :

حــــبـــيــــبى أضـــرمت النـار فى الفـــؤاد

حــــين وصـــفــــت ســـــحــــرك وبهـــاك

فــــأقــــصــــر القــــول إذ أشــــعلت الـفتن

مع أنـه يطيـب للنـفس ســمـــــاع نجـــواك

القصـة ، قال : أمكث أيامـا أخرى لعل الشاه يـترحم على عيالى ويتـشفق على قلبى وحالى فيطلقنى إلى عـيالى وأطفالى ؛ فبقى سنتين أخريين فى خدمـة الشاه ، وكانت زوجة التاجر تسح فى فراقه قطرات الدمع وتنوح بالدعاء والتـضرع والبكاء والتخشع سائر الأوقات :

يا هدهدا قـد غـاب عنا برهة   أورد لنا خبـر يقينا مـن سبـا

وكان الرجل من عيـاله فى خجل ومن جمرة الفـراق وحرقة الاشتياق فى وجل ، ومـضى على أولاده فى فراقه ثلاث سنوات وأحالوا إليه محنة الفراق والشتات ؛ فـأعاد إلى الشاه كتابة قصته وشـرح غصتـه ، فقال الشـاه : لا إجـازة قطعـا للمـراجعة ، ولا رخصه حسما بالمعاودة ، وعليك بقية عمرك أن تلازم مهمتى وتخدم حضرتى وتجاور ظلال دولتى .

القصة ، بقى التاجر ثلاث سنوات أخرى فى هذا الكر والفر وكان يمضى أوقاته مثل يعقوب فى بيت الأحزان ويبذر بذر الصبر مثل أيوب بجهد مغلوب ؛ فلما انصرمت ثلاث سنوات أخريات على هذه الحادثة وطفح كيل زمان الهجر وزن شراب الوذر وصار طير البـهجة فى محنة الغـربة بلا ريش أو جناح وغدو ورواح . تعلم الولدان الخط والقرآن فكانا يخطان لأبيهـما كل أسبوع رسالة تفيض بألم الفراق كرسائل المحبين والعـشاق ، ويقرران فيها لوعات الاشتياق ونزعات الافتراق :

كتبـت إليـه وجـد النـوى وقلبى عـلى حبـه عـاكف

لئن غاب شخصك عن ناظرى فـذكـرك بين الحشـا واقف

بارح فؤادى أُنسى كله وصبرى فإلى متى جور يومى وجفاء دهرى

فبلغ قلب الـتاجر الخناجـر ، فكتب رسالة فـيها يا عـيالى الرفقـاء الأحبـاء ومن أنتم فى حوادث الزمـان المؤنس والدواء ، عليكم تـرك الضـيـاع والأسـبـاب ، وأن تأخـذوا للـرحلـة إلىَّ بالأسباب فلا أرى لليل الفراق هذا صباحا ولا ليوم الاحتراق هذا رواحا وقلبى إلى مـخلب الفراق قد ذلَّ وصبـرى مـن مكتب العقـل قد ولَّى :

ســلام عـلى الدنيــا وطـيب هوائـهــا

ولا خـيــر فى الدنيـا بـغـيــر حـبـيب

أيـا نــوب الأيـام بلـغ تحـــيــاتـى

إلى قـلب مــحــزون بـغــيــر طبــيب

عهد الـشباب فى يد الزمان باطل ، ومـسك الأيام من محنة الدهر زائل :

لما سئلت عن المشيب أجبتهم قول امرئ فى الصدق فيه مُحقّقِ

طحن الزمان بريبه وصـروفه عمرى فصار طحينه فى مفرقى

فأخـذت الزوجة ولديها وولت بقلب مـستبـشر وجهـها إلى مهمة السفر ، فلما بلغ من الطريق منتصفه وصلوا إلى ساحل نهر عظيم ماؤه ملح أجاج وعبوره إلى الملاح والسفين محتاج ، وولى النهـار وجهه إلى الـزوال واتشحت السـماء حلة الارتحـال ووجه الشعاع أصفر كوجـه حبيب (عذرا) (وامق) ونفس الزمان بارد كنفس كل واله وعـاشق ، فقالوا : الـنهار عجـيل والليل طويل فنقضى الليلة على سـاحل البحر ، ونعبر الماء بالغـد فى الفجر ، فلما فتـحوا محملهم عن راحلتهم توجـه الطفلان إلى النهر فكانا يجـريان وسط خضر النـهر ويلعبان على مفـرش مسكن الطير . كان التـاجر قد سـمع بخبر قـدوم أهله وولده فخـرج لاستقـبال فلذات كـبده وأسـرج راحلتـه صـوب السـاحل الآخر للنهـر ، وقبل أن ينتـهى النهار إلى وقت الغروب وأن يرتدى العالـم كسوة آل العباس وصار وجه الشمس بلون الذهب وبردت أنفاس الزمان المنهمد ، قدم التاجر إلى شاطئ النهر لكى يجدد طهارة أداء الفرائض ويؤكد قواعد العبادة لاقتبـاس السعادة ، وكان معه بدرة من التبر فوضعـها على حافة النهر ووقف للصـلاة ؛ فلما بلغ بالصلاة من التكبير إلى السلام وانتهى بالطاعة من الافـتتاح إلى الاختتام توجه فى الحال إلى وكنته وفتح رأس سـفرته ، ولم تكد اللقمة الأولى تبلغ أسنانه وكلمـة (بسم الله) تغادر لسانه حـتى تذكر أنه نسى التقـاط بدرة التبر وترك مـحصـول عمـره عـلى حـافة النهـر .

فلما آب إلى الشاطئ ، لم يجد من تزاحم نبات الأدغال وتراكم مشغلات البال موضع الطهارة والصلاة ومحل أداء الضراعة والخشاعة فلبث ساعة كاملة على الشاطئ يتمحص ومكث زمانا يسيرا بين الأشجار يتفحص ، وبحث عن البدرة طويلا فلم يجد منها كثيرا أو قليلا ، ووجد الطفلين يلعبان على حافة مجرى الماء ، ويتناغيان بسبب الأخوة والصفاء ، فأمسك التاجر بالطفلين وقال لهما أخرجا بدرة الذهب تُفْرجا عنكما التهديد بالضَّرْبِ ، فلم يمر من هنا هذا الوقت إنسان قط أو حيوان ، ولما كان الطفلان بريئين من هذه الخيانة عاريين من هذه التهمة فلم يحصل منهما على البدرة بالتهديد والوعيد ، وما وجد ما فقد بالتخويف والتشديد .
فلم يرحم التاجر حالهما ولم يصدق كلامهما وألقى من حزنه بهما فى الماء ، ولما تأخر (بهروز) و (روزبة) واشتبك البازى الأبيض الشرقى بمخلب الغراب الغربى وامتزج مسك سواد الليل بكافور بياض النهار وانحلت أطنبة الشعاع من شواهق الجبال وانسدلت ضفيرة سواد الليل على أُذن الأطلال واحتلك وقت الغروب واقترب وقت صلاة العشاء صرخت الأم وأخذت تصيح على ضوء القمر على حافة النهر : أين أنت يا روزبة ويا بهروز ؟ أقبلا إلى صدر أمكما فقد تأخر الوقت ؛ فتعرف التاجر على صوت زوجته فألقى فى الحال بجواده فى الماء وعبر النهر وأخذ زوجته فى حضنه لأن تعارف الأصل يهدى إلى الوصل والعيش السابق

يؤكد العـهد اللاحق . قال الزوج لزوجـته هل كنت تنادين روزبة وبهروز ؟ أين همـا فقلبى مشتـاق لوصالهما وعـينى تتمنى رؤية جمالهما ؛ فقالت يا بعلى العزيز ذهب الولدان للّهو وانتهى النهار إلى نهايته وابتدا الليل ببدايته ولم يصلا بعد ؛ فقال الأب من ألم الفراق وغاية الاشتياق : إلى أى ناحـية ذهبا ؟ فقالت : ذهبا إلى حافة النهر وقالا نتريض سـاعة فى جريان الزلال وجولان الشمال لعل فى ذلك بهجة المحبة وبشاشة الحشاشة ، وما أن سمع التاجر هذه المقالة حتى ضرب بيديه ومزق بردتيه ، وقال يا زوجتى صار ولدانا فى غرق ماء الهلاك طعـمة جور الأفلاك وفى طوفان الخطر لقمة القـضاء والقدر ، خسـرت الجلد والسقط وأهدرت الولد فى النهر بالسقط :

عـجـبت لصـبـرى بـعـده وهو مـيت
وكنـت امـرءاً أبـكى دمـا وهو غـائب
عـلى أنـهـا الأيـام قـد صرن كـلهـا
عـجـائب حـتى ليس فـيـها عـجـائب

وجدّا الليل بطوله فى البحث عن الولدين لعلهما يجدان أثرا من حياتيهـما أو خبرا عن مماتهما وكلما زادا بحـثًا قلا أملاً وبقى الوالدان بقلب مشوية وعين ندية على حافة النهر زرعا شوك الحسرة فى قلبيهما ومزعا رداء المأتم بيدهما ، وكانا يبكيان بهذا البيت :

بأى طالع ولدت يا ربى حـــتى إن الزمـــان
حــيــثــمـــا وجـد ألما رمـــانى عليــه .

بقى الوالدان متحيرين لكن اللطف الإلهى بفضله غير المتناهى كـان أدرك هذين الطفلين من الغرق وألـقى الماء بكل منهمـا على طرف ، وجعلت رعاية الربوبية مكانهما هودج الشرف ، فدفعت عنهمـا الموت والتلف ، فسـقط كل واحـد منهمـا عــلى موضـع على ساحل النــهر مدهوشـا بهذه الواقعـة النازلة وهذه الصاعـقة الهائلة .

واتفـاقا كـان أحـد الملوك قـادما إلى هـذا الطرف من النهـر للصـيد والتنزه لكى يتنزه على حـافة الماء ويـتفرج علـى أجواف الآجـام ويتـريـض على حـواف الآكـام فـصـادف فـجـأة طفـلاً منهـوكًا مـتروكًـا وفى جـمـرات النوائـب مـحـروقًا وبشــرارات المصـائب مـسلوقًا ، أذبلـت آثـار الحزن روض حـسنه وأطفـأت عواصـف التـرح مصباح أفـراحـه ، قـال الشـاه مـن أنت ومـن أين قدمت ؟ فـحكى الصبى لـه عـــن قصتـه ؛ فـأدار الشـاه من غاية الشـفقة ونهاية الرأفـة الدمـع فى عينيه وسأله مـا اسمك ؛ فقـــال روزبـة ، فقـال الشـاه : تفـــاءلت باسمـك وقـبلتـك لـى ولدا فـأسعـد قلبـا فسـوف تكون السـعادة مـقـارنتك والسيـادة مصاحبتك .

وكان الأخ الآخر قد سقط على الطرف الآخر وشاء الله أنه وقع بأسر جماعة من العيارين والسراقين فقالوا نبيع هذا الطفل عبدا ونحصل على مبلغا له ثمنا ، ونسكر ونعربد به زمنا ، ولا يدرى أسرار الإرادات الإلهية أى مخلوق ولا خفيات المشيئات الربانية أى موجود ، لما ذهل التاجر من حوادث الدهر العجيب وغفل من صدمات العصر الغريب قال لامرأته : ليس لنا بعد اليوم فى حياتنا هناء ولا فى عمرنا رضاء وليس لجروحنا التئام وشتاتنا انتظام فهلمى نهيم فى هذا العالم المملوء بالغم وهذه الدنيا الفائضة بالمأتم على وجوهنا ، ونرى ما بقى بالزمان من وقائع ونشرب من يد ساقى الحدثان من المناعم والفظائع :

الحمد لله الذى لا يحمد على بلاء سواه

فسار التاجر وزوجته فى البلدان دائرين حائرين حتى وصلا يوما بلدا وكان معهما مال ومنال وثروة ونعمة ، وكان التاجر يمر بسوق النخاسة فى يوم فرأى عبدا يباع بصورة مناسبة وهيأة متقاربة فتمعن فيه بنظر الفراسة وقال لنفسه : هل هذا الطفل فى الأصل حر أم عبد ؟ وأحس بميل إليه فقال أشترى هذا الغلام ، واتخذه ولدا وأقضى يومى فى محبته وأمضى همى فى مودته ، ودفع ثمن الطفل واتجه إلى المنزل ، وقال لزوجته :

(اشتريت عبدا) وما أن وقعت عينا الأم على وجه الغلام حتى صرخت وغابت عن الوعى : (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله)

لا أقنط حتى ولو ذهب الأمل   ولا يخلد أحد فى الزمان حزينا

فسأل التاجر زوجته ماذا ألم بك ؟ قالت هذا ولدك وفلذة كبدك وهذا الابن ابنك ، ولم يكن التاجر قد رأى ولده ، فلما أعاد إلى ولده النظر أحس بالشفقة الفطرية والرأفة الأصلية فى قلبه فاستغرق فى محبته واحترق بمودته ، وبدت قوة فى جنانة ومكنه فى جثمانه، تصحح قلبه الكسير بمرهم الوصل وتروح روحه الحسير بتعارف الأصل ، فقال لزوجته : بما أنّا لقينا ولدا لنا فالصلاح أن نسير ثانية إلى بلاط الملك ونقضى عمرنا فى ظل رعايته ونمضى عهدنا طيرا فى فضاء عنايته ، مثل : جاور ملكا أو بحرا .

فلما وصلا إلى دار الملك شرح له هموم الزمان وغموم الحدثان، فحزن الملك عليه وزاد فى رواتب إنعامه ومراتب إكرامه . وعلّم التاجر ابنه بهروز صنعته معرفة الجواهر ودقائق تلك الحرفة وماهى الجواهر المعدنية وكيف هى اللآلئ والدرر البحرية وأفضى إليه بخيرها وشرها ونفعها وضرها وماهو الألطف من اللعل البدخشانى والأشرف من الياقوت الرمانى ، ومن أين ينتج الزمرد الأخضر ، وما ثمن مثقال الزبرجد الأصفر، ولم لا تطيق الأفعى

رؤية الزمرد، ولماذا يتغير لون الفيروز بمرور الأيام ودورة الأعوام، ومن أى برودة وأى حرارة ينشأ بياض البللور وسواد الشبَّة ، ولأى أمر يليق عقيق اليمن، وبأى خاصية وقوة يجذب الكهرمان القش ، وما الوشيحة والآصرة بين المغناطيس والحديد حتى يجتذبه إليه ومن أىّ مادة ركب المينا فى عهد (جشميد) وبأى وقت تنعقد اللآلئ فى أجواف أصداف البحرين ، ولماذا يكون بعض الدرر طويلا والآخر مستديرا . حدّث ابنه بكل دقيقة فى علم الجواهر من المعدنيات والبحريات ، وصور كل منها بالمعاينة والمرأى فى مرآة حدقته حتى ظهر فى أقل الزمان لدى بهروز مهارة وبصارة وصار أستاذ عصره ونادرة دهره ، ولما مضت سنوات عديدة أصبح أبوه يعتمد تمامًا على لطف بصيرته وحسن سيرته فأودع إليه ما عنده من جواهر وأرسله للتجارة وقال له : فى أثناء سفرك إلى كل بلد تمر عليه عليك البحث عن أخيك بكل ما لديك من جَدّ وجهد وألا تيأس من لطف الحق (ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

وأعدَّ بهروز أسباب السفر وقال : إن الملوك والسلاطين هم الذين يشترون الجواهر فقام واتجه إلى حضرة ملك كان صيت عدله فى الدنيا مشهورا ومحامد ملكه فى الأفواه مذكورا ، وكان الملك الذى التقط أخاه من حافة النهر قد رحل من دار الفناء إلى جوار البقاء ، وانتقل من جور تعب الخلائق إلى جوار رحمة

الخالق ، وجـعل روزبة ولى عهد ملكه وسـلطنته وخليفـة ولايته ومملكتـه ، ولما لم يكن لهـذا الملك ابن نسـبى قبل الحـشم روزبة ملكا وهو ابنه النسبي، وعقـدوا خواصرهم بحزام امتثـال خدمته وبمنطقة انقياد إشارته ، ولما وصل بهروز إلى حضرة الملك وعرض عليه الجواهـر ، ولم يتعرف أحد الأخين على الآخـر لطول عهد الافتراق فـقد محا طول المدة وكـثرة الغيبة نقـش الخيال من لوح المخيلة :

لما صهـرتنى محـن الأيـا ـم ما عاد يعرفنى حبيـبى الهمام

مثل : طول العهد منسى ، وسمى الإنسان إنسانا لأنه ناسٍ ، فـأمر الملك بإنزاله نزل الكـرامة وأرسله لزيادة الفـخامـة إلى دار خازنه ، ولما عـرض عليه سـائر ما معـه من الجواهر أعـجب بها واشتراها منه بسعر كبير ، وكانت هذه التجارة لبهروز تجارة مربحة وتلك السـفرة إليـه سـفرة منجـحـة ، وأرسل الشاه إلى بهـروز بوجـوب الإقامـة فى هذه الدولة حتى يتـرادف إنعامـه فى حقـه ويتضاعف إكرامه فى شخصه، وقال الحكماء (فى الثبات نبات) فقال بهروز : يا مـلك البلدان وشاه الزمان والمكان إذا لم يكن بى الهم على أمى وأبى لمكثت فى خـدمتك لكن لى والدين شـيخين وضعيفين ومتألمين ونحيفين ، عجز أبى بسبب جفاء الأيام وتعاقب النور والظلام وصـارت أمى من جملة العجـائز فرعـاية حقهـما فـرض عين ، وقـال تعـالى (وقـضى ربك ألا تعـبـدوا إلا إياه

وبالوالدين إحسانا) فعين الشاه مركبين وجمّازتين، وقال اكتب لهما رسالة ليقدما إلى هذا الجانب فيستريحا فى مراتع الدولة ومعاهد هذه الحضرة .

وأرسل بهروز قاصدا رسالة قرر فيها لطائف مكرمات الشاه وعوارف كرامات هذا الآمر الناهى وحرر فيها إشارة هذه الحضرة ، وقال : إذن عليكما بالقيام والإقدام إلى هذه الحضرة ؛ فهذا الشاه كثير الإكرام وإنعامه عالى المقام :

قرم جواد صدره واسع — وكفه معروفها دائم
يا عجبا من جوده وكيف لا — يرزق فى الضيف حاتم

وبما أن ملك العالم لا يعدم الشقاق ولقمة الدنيا لا يعوزها المشاق ظهر للملك خصم فأعد الأسباب للحرب وجمع من الرجال المبارزين والشجعان المبرزين وكانوا فى خدمة الملك وهيأوا ما لابد منه من أدوات الطعن والضرب والكر و الفر وقالوا : دم الأعداء شرابنا وكبد الخصوم كبابنا :

السيف والخنجر ريحاننا — أف على النرجس والآس
شرابنا من دم أعدائنا — وكأسنا جمجمة الراس

لا أحب للأذن من قرع طبول الحرب ولا أعجب للسيف من لون دم العدو ، ولما دق الخيل والحشم الطبل والعلم بالصحراء فلم يغادر الملك إلى خصمه بجسمه لأنه لا يساوى حركة ركابه

ومشافهة عتابه فأرسل جيشه للمحاربة وعقد مع ندمانه الخواص في مصاف المشاربة :

همـوم الدهر تفـتت الـفـؤاد ولا يـزول همـه إلا بالمدام

وكان بهروز يشـرب في خدمة الشاه وكـانت رياحين السرور في خضرة وبسـاتين الحبور في نضرة وعندليب السـعادة في إنشاد وحرفـاء اللذاذة في اجتهـاد وجاشت القلوب بالعـشق وصاحت أنواع المغاني لتحريك الشعور الإنـساني ، وكان شمع النشاط يمتد ومطرب الانبساط ينشد :

نهـار أو رزق وكـل السر فـيه وشرار أو عشق وكل الأسر فيه

وحدث أن الشـاه وبهروز كـانا يشربان لـيلة وكانت أسـباب اللهو مجتـمعة وأصوات الملاهي وألحانها مـرتفعة ولما أثر الشراب في الشاه أسند رأسـه على مسند السـعادة وأريكـة السـيادة حتى تهـدأ لحظـة نظـار الحـواس في مـهـد الاستـئنـاس ويهـنأ ساعـة متـحركو الطبيـعة على فراش الخلوة (الـنوم راحة وكثرة السـهر جراحة).

فلما أراح الشاه رأسه على مسنده قال بهروز من فرط الثمالة : الليلة الحراس الخـواص ليسوا حاضرين والـنقباء المتيقظـون ليسوا ناظرين والصـلاح أن أظل ساهرا بدل الحـراس والرقبـاء والنقبـاء حتى النهار فأمسك سيفا وجلس على رأس سرير الملك :

يقظان كالكواكب وسهران كالنجوم

وأدفع الليلة بالسيف البتار النائبات

كالشمس فى الأفلاك بحكم الله العادل

أطلع وأندفع من قلب كل نبات

ولما حل وقت الصباح الصادق حين طلعت طلائع الشمس إلى صحراء المشرق وصل حراس الملك المظفر ببشرى الفتح المؤزر ، فلما بلغوا الإيوان الخاص وميدان الخواص رأوا الملك نائما وبهروز بسيفه المجوهر على سريره جالسا ، فصرخوا فيه فى الحال وجعل هذا الحال مقدمة لتسبيب وتعبئة لتضريب ، فلما استيقظ الملك باقتراب تلك الطائفة وانتبه بإياب تلك الزمرة قبلوا فى الحال أرض طاعة ورفعوا إليه بشرى هزيمة طلائع الخصم وقالوا : يلتمس أمراء الحشم وأمناء الخدم أن تتبختر المظلة الملكية وتتكسر المواكب العالية فمهما لمعت السيارات فلا محيص من قمر السماوات ومهما ثبت الأعيان والأركان فى الحرب والطعان فلا فوت من حضور هيبة السلطان :

فما نهضت لأمر عز مطلبه	**إلا انثنيت وفى أظفارك الظفر**
إذا طلعت فلا شمس ولا قمر	**وإن سمحت فلا بحر ولا مطر**

ثم أشاروا إلى بهروز وقالوا حل الأوان لكى يأمر الملك بصلب قالبه غير المهذب وسلب روحه العديم الفتوح فقد سمعنا منه البارحة مقالة سامجة وشاهدنا منه بالأمس حركة خارجة ،

فاستكشف الشـاه من بهروز تلك الحال ، واستـفسر منه عن تلك الأعمال فقال بهروز : قد بان للشاه بقرائن الأعمال صفاء عقيدتى وخلوص محـبتى واسـتبان فى أنواع الحـركات والسكنات كـمال عبـوديتى وحسن خدمـتى . والبارحـة لما غاب الحراس والحـفاظ صدرت منى هذه الحركة بدافع طاعـتى وظهرت منى تلك الخدمة من غـاية محبـتى ولم أدر أن الحسـاد سوف يجـعلون منهـا مادة الفسـاد ، وأن القصـاد سوف يحيـلون منها لى سبـب الكساد ، والتماسى أنا العبد من كرم الشاه أن يعمل بفتوى القرآن الكريم لا بقول كل حـاسد لئيم (يا أيهـا الذين آمنوا إن جاءكم فـاسق بنبأ فتبـينوا) ولو هاجم الأجل الأمل وكدرت الأحداث صـفو الزمان فلن تفيد حيلة ولن تنفع وسيلة :

أنا المصـيب وحـاسـدى الملعـون يتعـبني

وإن أردت بكـأس كـالهـا حـاسى

لو كـان للـناس ضـيق فى مـحـاسـبـتى

فـالموت قـد وسع الدنـيـا على الـناس

فأمـر الملك بإلقاء بـهروز فى السـجن ثم توجه إلى مـصاف الأعداء وصفّ الهـيجاء فـأرسل رايات الظفر وعلامـة الكر والفر إلى الصحراء ونصبوا مظلة الظفر وقدم إلى الميدان بالشجعان، وكان أسود العرين فى جولان واشتعلت نار الهيجاء والقتال، وانتظمت

صفـوف الرجال وتلاحم الأبطال وتمازج المغاوير الرجـال ، وكان لسان الـكر والفر يهـتف بخطبة الظفـر باسم الملك الأثير ونسـيم النصرة يهب بنفـحات الكسرة إلى قمر الأثيـر . ، ولما أحال آساد المعركة بالسيوف النيلوفرى أرض المصاف إلى مزرعة شقائق زاهرة وصارت* طرة الطرادات فى إظهـار الحق شقائق ناضـرة ، وغدت طيات العلم على عارض البيرق كالضفـيرة الضافرة تصاعد صوت النصرة (نصر من الله) من جامع الأولياء وحلت هيبة (فهزموهم بإذن الله) على حوالى جمع الأعداء ، فـحول الملك عنان مركبه ليـؤوب إلى دار ملكه ، وفى تلك اللحظة التى وصل فـيهـا إلى المدينة وصلها والدا بهروز فـلما سمعا ما جـرى من حال وحدث من قيل وقال أرادا أن يسـيرا إلى البلاط بتظلم فلم يستسـهل لهما هذا فقصـدا أن يرسلا هدية إلى الملك المُعْلَم فلم يتحصـل لهما هذا ،فحررا قصة من غصة الزمان وقررا حكاية من شكاية الفلك الخوّان :

يعبر قلبى عن كربى فى كل لحظة ويقرر هَمّ الزمان فى كل آن

كتـبا إليه : أيهـا الملك السعيـد والسلطان ذو السلطان المديد اعلم أن لكل ربيع خريف أشجـان، ولكل كنعان بيت أحزان، ونحن أناس ذقنا من يد النوائب شـربات وتحملنا مـن رفسات المصـائب ضـربات . كـان لدينا ابنان عـزيزان مـنيـران ككوكـبين نورانيين ومبهـجان كالسعدين السمـاويين هما راحة الفؤاد وحرقـة الأكباد

روزبة وبهروز ، ومن الاتفاقات العجيبة وحوادث الأيام الغريبة أن سقطا فى الماء فوسما بمائه ألف ألم واحتراق قلب والديهما من جراء الفراق ، وأعاد اللطف الإلهى بهروز إلينا وهو بوصاله مرهم آلام فراق روزبةٍ لنا ، جماله شفاء لمأتم فراق ذاك الغائب فبعث به الشاه إلى السِّجن؛ فبعث فى قلبينا الألم والحرقة والشَّجن :

ارحم على نفس له واحد　　　قد غاب عنه ذلك الواحد

فلما وصلت قصتهما إلى الشاه وأدرك أن هذا النسيم يهب من مهب ائتلاف قريب، وأن هذه الشعلة تنير من مطلع نور ثقيب قال فى نفسه : هذا أشبه بأبى وأمى ، فاستدعى الاثنين وكانا يقصان عليه ما جرى لهما من أحوال وينظمان درارى المدامع فى الماس الحزن فقال الشاه : أيها الشيخ إنك أبى ، وأيتها الشيخة أنت أمى ، ومن بالسجن هو أخى ، وأنا روزبة الذى ضعت وهو ابنكما الذى غرق ، فلما رأت الأم وجه ولدها ذهلت من غاية الشوق لابنها ومن فرط مابها من العشق غابت عن نفسها ، وأطلق سراح بهروز فى الحال وحمل على الفرس الملكى إلى الملك فتبدل الفراق إلى وصال وتحول الهجران إلى الموافقة والاتصال :

بعد هموم الأيام التى كانت تضنى الفؤاد

تحقق للنفس فى النهاية ما كانت ترومه من السداد

قال بختيار : يعلم الملك لو أن روزبة تعجل فى قتل بهروز

ووصل والداه وانعـدم بينهم أثر الفـراق وانهدم آسـاس الهجـران لحصل إلى قلبـه كثيـر من الحسرة والكـسرة ؛ فلا تعـجلن بقتلى فقـدمى فى حلقة قيـد قهرك وقـالبى فى حبس عـدلك وأمرك ، وسوف يصير معلوما يومـا لرأيكم العالى الذى هو مهبط الإلهام العينى ومظهر النور القـدسى ببديهة الحال واقتـضاء الارتجال أننى من تهمة الرجال برىء، وأنى من دنس الخـيال المحال نقى ؛ فلما سمع الملك هذه الحكاية اللطيفة والكلمات الظريفة سكنت نار قلبه وركنت عواصف قهره وأمر بإيداع بختيار السجن :

فإن قيدت رجلى فلست بجازع ... فإن خلاخيل الرجـال قيودها

وتوجه الملك إلى الوزير قائلا : إن أقتل هذا الصبى أخْشَ أن تكون العاقبة الندامة وإن أُبقِ عليه يكن ذاك سبب تواتر الملامة .

وفى اليوم التالى حين نصبت أعلام الشعاع الزنجفرى الأحمر على شرفات أركان المكان واغتـصبت ولاية النهار بيد جيش الروم من يدى الأحبـاش الفحـوم ، لمع جبين الشـمس المنيرة من قـبة الفلك المستديرة وطلع جرم النير الأعظم من الفلك الأفخم ، أتى الوزير الثـالث إلى بلاط الملك وقـال لـه : أدام الله الملك ، إن العقاب مسمار لا يمكن لطناب سرادق الملك إلا أن ينعقد به، وإن إقامة الحدود سلك لا يمكن لجواهر المفاخر إلا أن تنتظم فيه، إن أمر الملك بالتأخير فى قتل هذا الطفل الشرير أو بـالتقصير فى مجازاة

خيـانة هذا الغرير فـإنى أخشى أن تحل قواعـد الهيـبة أو أن تزلّ رسوم الرهبة كما قيل :

العـقـاب سـحـاب يـجـدد وجـه الملك

فـى كل حــال بـأجَـدً من ورق الـورد

وسـفك الـدمـاء للأعـادى فى طبـع الملوك

له تأثيـر ألف مـبـهج وكـاس خـمـر كـالورد

وغرس العقاب لابد له من زرع، وهذا الولد الخائن لا محيص له من قلع فهو ذئب فى صورة خروف وغريب فى شكل مألوف ؛ فأمر الملك بنصب مـشنقة الغُدّار والإتيان العاجل لبخـتيار ؛ فلما وقع عينه عليـه قال أيها الغرير المكـير ،أمرنا بشنقك لكى يعتـبر الناس بقتلك ؛ فأطلق بختيار فى الحال لسانه وقال : الصبر حيلة الرجال والعـفو من خصـال الكمال ، والصبـر بكل الناس حرى وبالملوك أحرى ، والعفو يجـمل من كافة الأناسى وهو من الملوك أولى ، وإذا لم يغـرس فى هذه اللحظة الملك غـصنا فى روضـة العفو فإنى أطمع ألا يحرق بيدر الصـبر بجمرات القهر؛ فكل من تجرع فى الحوادث صبر الصبر تدرع يوما بدرع الظفر ، وفى هذا المعنى حكاية ورواية وفيهما مواعظ ومعانى ودراية ، فقال الملك : احكها أسمعها وأعِ حكمتها وأجمعها ، شعر :

صـفحـنا من بنى ذهل وقلنا الـقـوام إخـوانُ

عـسى الأيام أن ترجـعن قـوما كـالذى كـانوا

الباب الرابع

قصة أبى صابر وعاقبة أمره فى تنظيم الأحوال وترتيب الأعمال وما حدث فى تملكه الممالك .

قال بختيار : أدام الله الملك ، حكى ناقلو الأخبار ورواة الآثار أنه كان فى الزمن القديم رجل صابر اسمه أبو صابر ؛ لأنه جعل الصبر والمداراة والسكون والمواساة حليته ونسج الامتثال لأوامر العقل والانقياد لأسباب العدل كسوته ، كان قد رأى باقتداره العقلى ونوره النفسى عاقبة الصبر الجميل وشاهد ببصر بصيرته وصفاء سريرته حسن خاتمته ، وأيقن أن ثواب الصابرين أكبر من حصر الأوهام : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وتحقق من أن سعادة متابعى العلم ومشايعى الحلم أعلى من حرز الأفهام : (والذين أوتوا العلم درجات) :

وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأفضل أخلاق الرجال التفضلُ

كان يجعل من الصبر لحوادث الزمان سترا ويصنع من الحلم لنوائب الحدثان خدرا ، إلا أن أسدا ضاريا ظهر ذات يوم على أطراف المدينة حتى كان يتزلزل من هيبته قلب الحجر ، ويرتعش

من مخافتـه أعضاء النمر والببر ، كان أسـدا يثير الثورات ويؤدى إلى الممات قـوامه حجر قديد وجـسمه من الحديد ، كـان يجفل الرعد مـن زئيره ويبرق الـبرق من مخـالبه ، كـان يبطش بدواب الخلق ويمزق أغنامهم وأنعامهم .

فلما رأى أهل النواحى لطمات قهره ونقمات مكره وقد اتخذ من غيـاض الغيظ مـأوى ومن غدير الغـدر منهلا ، قـالوا : من يطيق مقاومة هذا الليث الكاسر وحده سيفه الباتر ؟ فأتوا إلى أبى صابر وقالوا : رأيت من وقـائع الزمان كثيـرا وسمعت من بدائع الحدثان ثرا ثريرا ، وأتيناك نستشيـرك فقد تجاوز شـر هذا الأسد الحـد ، وفاق ضـرر هذا الضارى العـد ، والمصلحـة أن تكون لنا مساعـدا ومساندا لكى نحشر من كل قـرية حشرا ونطلب من كل واحد أزرا فلعل هذا الأسد يمل ويتعب وينجو من شره الشعب ، فقال أبو صـابر : اعلموا أن جندله الأسود هو عمـل الملوك لا حرفة المملوك ، لا يتـأتى لأى طفـل مقـابـلة أسـد العـرين ، ولا يـولد فى كـل عـصـر (رسـتم بـن زال) أو (اسفـنديار) المتـين ، واليـد التى اعـتـادت القـيد تأنـف لمـس الكـأس والكـف الـذى يليـق بالخضـــاب لا يجـدر بالحـراب والضـراب ، و لو تأتـى من الشـعب مقابـلـة الضـرغـام واستـعمـال الحـسام مـا أعطـى خزانة الملك جـزية أو خراجا ولما أُحـرج أمام ضرائبـه إحـراجا ، ولو أن كل سـاق نبـات رمـح خطى مـا تعلـم الأطفـال أبجـد وحُطّى ، فاذهبوا واهتمـوا و حسب بزرعكم وضرعكم ؛ لأن وضع

الروح موضع الخطر وإلقاء الدم إلى الهدر هو عمل الأبطال لا شغل الأطفال :

لا تطلبن من أى غشاء نشر زهر أمرك

ولا ترومَنّ من أى هاب داب الضراب والحرا

ولا تركنن لمضاء أمرك إلى كل كاهل

ولا تهملن تفريقا بين المحراث والعصا والجراب

لا يجب إن صرتم إلى قتال هذ الأسد أن يهلك أحد بضرب مخلب له ، والآن أيضا يقوم شحنة تقدير الأحداث بالتدبير ويقدم زمان تعبير الأضغاث بالتفسير ، وكل من وهب فى أمره صبرا وريْثًا صار فى همه وشأنه رأسا وليثا ؛ فلما سمع الناس نصحه وانقضت بعض أيام قدم ملك تلك الولاية يقصد الاصطياد والتفرج على النجاد فى تلك البلاد ، فلما بلغه نبأ هذا الأسد استدعى المبارزين إلى ميدان الوغى ذاك واستجلب المصارعين إلى مرج الهلاك حتى يهلكوا هذا الضرغام بحيلهم الماكرة وجهودهم المثابرة ويطهروا الفضاء والخلاء من بلائه ، فقال أبو صابر : أرأيتم أن بالصبر ظهر مثل هذا الارتياح وبترك التعجيل تنور مثل هذا المصباح ، وقد قال النبى عليه السلام : الصبر زين وقليل فاعله ، ولما انقضت عدة أيام أتى هذه القرية عامل من العمال من أجل تحصيل المال ، وكان ظالما فكان يفرض كثيرا من الغرائم واللوازم

ولا يتلطف على ضعاف الرعايا ولا يخفف على مستحق قط نقيرا أو قطميرا ؛ فقتلته جماعة من عيارى القرية وفروا هاربين واتهم بقتله جماعة بريئة فأتوا إلى أبى صابر وقالوا له : هلم معنا إلى السلطان ونبرئ ساحتنا من هذا البهتان لعله يرحم اضطرارنا وافتقارنا ويشفق على فقرنا وفاقتنا وضعف ناقتنا ؛ فقال أبو صابر : اذهبوا إن شئتم إلى الملك لكنى سوف أصبر حتى يماط اللثام ويظهر ما تتمخض عنه الأيام ؛ فلما بلغ الملك نبأ قتل عامله أرسل جيشا حتى يقلب القرية رأسا على عقب ويهدر دم أهلها بلا أدنى نصب ، وتهرب المجرمون وتصلب البريئون ؛ فعاود الناس الإتيان إلى أبى صابر وقالوا له : قم الآن نذهب إلى حضرة السلطان ونقص له ما جرى على الحقيقة دقيقة بدقيقة ، فلعل ذهابنا يكون فى حالنا دواء لهذا المرض أو يكون فى قابلنا أمانا لهذا العَرَض فدماؤنا فى هدر وأرواحنا فى خطر ؛ فقال أبو صابر : علمتم أنتم أن ليس لى خلا الصبر دواء وعلاج وليس لى عدا التأنى طريقة وانتهاج ؛ فقالوا من صبرك خربت البلاد واحترقت الأكباد والملوك رعاة الرعية وحماة ضعاف البرية . لنذهب ونقل له : لن يشب طفل عن الطُّوق بلا رعاية أمه الشفوق ، ومالم تدع البذر فى الطينة الطيبة للتراب الأسمر فلن ينبت النبات المثمر والشجر المزهر ، مثل (من سعى رعى ومن داوم المنام رأى الأحلام) ؛ فقال أبو صابر : اصبروا ولا تجزعوا فلن تضاروا بمذاق الصبر ونحن به سائرون إلى ظل نخل رطبة

جنب وجوار نحل عسله هنى ؛ فذهبت تلك الجـماعة بلاط الشاه وشرحوا له ما جرى لهم من قتل وإغارة وبينوا له ما وقع لهم من مبـالغة فى سفك الدماء وهتك أسـتار الحرائر والإماء ، فـغضب الشاه وقـال ولم لم تأتوا فى أول الحال حتى أعفـو عنكم وأنضو ثوب القتلٍ والإغارة ؟ فـقالوا : لنا فى القرية مُقدَّمٌ نستـشيره فى الحادثات ونستنيره فى المهـمات وقلنا له : هلم نرفع ما جرى من شأن إلى حضرة السلطان ونسعى إلى دفع هذه النازلة قبل أن تنزل فقال : آثرت التـصبر وأصررت على التربص فـلم نستطع القدوم بلا إجـازته حـتى اتسع الخـرق على الراقع وانغـرس السكين فى الكارع . مثل : بلغ السـيل الزبى وتجاوز الماء الربى ، فلمـا صار عيـالنا وأطفالنا طعـمة البلاء وغـدا مالنا ومنالنا لقمـة العناء رأينا عـدل الملك حصنا حـصـينا وعفـو المليك حـبلا مـتـينا ، هربنا كالمحرمين فى حرم أمانه وتعلقنا كالمجـرمين بأستار عفوه ، فأكرم الملك تلك الجماعـة وأمر فأُعْطوا من خزانته لزراعتـهم وعمارتهم معونة وألا يفـرض عليهم تلك السنة للتخفـيف والتلطيف مؤونة وبإخراج ذاك الـتاجر الذى يدعـى الجلد والصبـر ويقتـرع القدر والجبـر من تلك القـرية وأن يقولوا له : داوم على الصـبر حـتى تحصل لك أسباب السعادة وتتصل لك أمداد السيادة :

الآن وقـــد انتكس رأسـك من جــور زمـنك

فـــأذب فى الصـــبـــر روحك وكـــبـــدك

فطرد نواب الملك أبا صابر وولديه وزوجه بإهانة تامة من القرية فتجرع أبو صابر شربة الاصطبار وتدرع بكسوة الاعتبار وولى وجهه من وطنه إلى الهجرة وخطا بقدمه من مسكنه إلى الغربة ، طفلاه وعياله فى حيز الاضطرار وأبو صابر فى مضيق الاصطبار ، انحدر دمع حسرته من مقلتيه ، وانفطر قلبه من فرط ألمه ؛ فلما ساروا بضعة أيام فى القفار واجهتهم جماعة من اللصوص والعُيَّار فلما لم يجدوا معهم مالا قالوا نأخذ هذين الطفلين منهما ونبيعهما ، فأخذوا الولدين من والديهما بزجر أفجع ووسموا قلبيهما بهجر أفظع وأخذت الأم تبكى وتتوجع باسترقاق نور عينيها وتتفجع بإهراق دموع الحسرة من غاية تعنيها :

أنا الذى بغيرك وأنت بغيرى   نمضى فى الهجر أياما وأياما

لا يخلو عصر من يوسف ويعقوب ولا يصفو من ألم أيوب لكن قصة العاشقين تمل الفارغين وحديث المحبين تكل الكاسلين .
كان الوالدان فى جزع من فراق ولديهما وكانت جَرَّارة الهجران تنزل بنقطة قلبيهما لدغ الأحزان ، وكان ألفهما الطبيعى وعشقهما الفطرى يرسل بخار الحزن من معدن باطنهما إلى شبكات حدقتهما ، فكانت عيون ماء الحسرة تظهر على وجهيهما وخديهما بتحريك حرقتهما من منبع عينيهما :

من له معاناة بهذا الكبد   له لبادة من هذا اللبد

قال أبو صابر لزوجه : تصبرى فإن مع العسر يسرا ، اجعلى حال يعقوب مع يوسف مرآة قلبك لعل النسيم يوما يبلغ ريح

قميص الغائبين إلى مشام المهجورين أو أن الصبا ترد سَحَرًا بخبر الوصل إلى بيت الأحزان :

لا أقنط حـــتى ولـو انـعــــدم الأمـل

ولا يبـقى أحـد خـالدا فى هم الزمـــان

وفى آخر الأمر حين خرج أبو صابر وعياله من تلك الصحراء الفائضة بالسراب والمهمه الخالية من العباب كان كبدهما احترق بنار السموم وقلبهما اكتوى بألم الهموم وبلغت القلوب منهما من الهجر الحناجر وصار يومهما ليلا من الألم الآسر ، وكان حاصل أيامهما الآهات المرة وخلاصة عمرهما العزيز الأنفاس الحرة فوصلا قرية ، فأجلس أبو صابر زوجته بظاهرها وقال : لعلنا نصيب ما يسد الرمق أو نحصل على بعض الطعام والإدام والمرق ، أو نقتل مشقة الجوع والفرق ، ولما دخل أبو صابر القرية صادف زوجته جندى سكير فرأى المرأة جالسة فى الصحراء وحيدة لا داع ولا مجيب ولا حميم ولا قريب فأراد الاعتداء عليها ، فقالت له خَلّ عنى فأنا امرأة غريبة ومتألمة قلبتنى محنة زمانى رأسا على عقب وعاملتنى نوائب حدثانى بأشدّ من المضطر والمضطرب ذهب زوجى لمهمة فى هذه القرية فإن شاهد هذا الحال واطلع على تلك الأفعال فلسوف يعجل إلى السلطان يعرض حياتك إلى الخسران . فلما سمع الجندى كلمات المرأة سارع بامتشاق حسامه من غمده ، وقال : تعالَى معى وإلا فصلت بسيفى عنقك ، فارثى لنفسك

فـفى هذه اللحظة سوف يكـون جسـدك كالحـبة بين شـقى رحى أجلك وروحك الذليل فى صـحراء قطع أملك ؛ فـلما عـجزت المرأة حيلة أمام الجندى خطت بأصبعها ما حدث لها على الرمال :

أسرت غوغاء النوائب ولديَّ وشردت حملات المصائب أمهما :

ألا ليـت شـــعـــرى مـــتى نـلتـــقى

ومن نـوبة الـهـــجـــر كم قـــد بـقى

إذا لـم يكـن فـى أجـلى أدنـى تـقـــديـر

فـفى النـهـاية أقـوم لوصلك بأقـل تدبيـر

فاستأسر الجندى تلك المسكينة باستهانة فَضَّعف صروف الزمن وصنوف المحن وأسعف واقعة الكسرة بصـاعقة الحسرة ، ولما عاد أبو صابر إلى حيث ترك زوجته لم يجدها فقرأ مكتوب عياله على صفحات الطلل ورماله قالت :

وقع الجرح على الفرخ أى ابتلاءات هذى مترادفة وأى جفاءات هذى متضاعفة ، ومع هذا كله فحيلتى صبرى على كل عسرى :

الصـبـــر عـــلاج المرء إذا ضــاقت نـوائبـــه

ولا يُقْتَصُّ من الباغين الجـانفين بغيـر الصبـر

وفى النهاية توجه إلي جانب المصر بقلب يفيض بمحنة الدهر بلا رفيق أو مُوَاسٍ أو أصـبحة أو مَوَاسٍ ، وحـدث أن كان بهذه المدينة أمير ظالـم كان يبنى له قـصرا وأسس بميدان قصره وإيوانه،

وكان كل غريب يدخل المدينة يوقعـونه فى أسرهم ويحملونه إلى بناء قـصرهم فلمـا دخل أبو صـابر المدينة بحـال مشـوش وقلب مهـوش علق غبـار الغربة وآثار الكربة بوجـهه المبتـلى أسروه فى الحـال واستـاقوه للبناء فكان يمضـى نهاره إلى مـسائه فى العـمل ويعطونه بآخر الـنهار رغيفـين ليأكلهمـا ، وذات يوم سقط رجل من هؤلاء الغرباء المظلومين والأسراء المحرومين وكان يضرب اللبن والطين من فوق السلم فـتوجه إلى السـماء وناح ، فالسمـاء قبلة الدعاء وقال : يا مستغاث العاجزين ومعين المساكين ويا مغيث كل مظلوم ومنقذ كل محروم افرجـها بفرجـك ، فقـال أبـو صـابر : لا تكثر أيها الفـتى من النواح فلا يليق بالفتى النواح اصـبر فحين يدلهم الليل الديجور أيقن بأن طلوع الصـبح أوشك على الظهور ؛ فوصـل تضرع ذاك المظلوم إلى سـمع ذاك الملك الظالم فأمـر بأن يخلى سـبيل من سـقط من السلم ، وأن يسـجن من كان يقـول بالصبر والحلم ، حـتى ينفرج أمره بالصبر ؛ فقـيدوا أبا صابر فى الحال وجعلوه رهن الاعتقال :

لو قيل مَنْ رَجَلٌ طالت بليتـه   لاستعجلت عبرتى حتى أقول أنا

وحدث بعد عامين من هذا أن ثار الشعب والعسكر على هذا الظالم فقد اعـتل مزاج الرعية من عقـوبة ظلمه وملّ قلب الحشم والخدم من تواتـر جوره وقالوا اكـتست كل البـلاد بكساء الشـتاء وامتحنت كل القلوب بمحن الشـقاء والبلاء ، صار الورد من شين ظلمه شوكا ومـسمارا ،وصار الخمر من شر غـبنه خمارا ، وغدا

نبات هذه البلاد شوك الحسك ونزلت بتلك الوهاد حوادث الفلك ، فلما هرب الأمير الظالم ، وكان قد قتل أخا له وانقضى عهد مديد وهو يقول إن أخى فى السجن مقيد بالأصفاد و حبسه من مصلحة العباد ؛ فاعتقد العسكر أن أبا صابر هو أخو الشاه فأتوا السجن معجلين وأخرجوا أبا صابر من الجب وأزالوا عنه القيود والأغلال وبايعوه ملكا فى الحال :

لما صبر يوسف فى ذاك الجب أسعد الزمان بتملك الخلق

و(الصبر مفتاح الفرج) وأسند أبو صابر ظهره إلى مسند الملك وأرفد ما كان بالخزانة من مال للحشم والخدم ، ثم قالت جملة العسكر : لابد من طلب ذلك الظالم حتى لا يصاب الملك بضر من مكره أو الولاية بشر من غدره :

لا تدع أيها الملك أن تصير النملة حَيّة

والشوكة حين تدعها بشجرة الورد تغدو منارة

والغصن الذى لا تطويه بيدك

يغدو يوما شجرة سامقة

فرافق أبو صابر الجيش واستأسر خصمه خلال أيام يسيرة ومهد إذ ذاك قاعدة العدل بما لا تحيط به الأوهام . أكد أساس الإنصاف بما لا تسعه الأفهام فتضعفت الدخول وتحففت الخروج وبدت فى البلاد نصفة (عُمَر) وسعادة القمر حتى صار صيت عدله فى أفواه الرواة سمرا وتاريخ إنصافه فى خزانة الدنيا دفترا .

أما تلك الجماعة السارقة التى سرقت ولدى أبى صابر فقالوا تعالوا نهدى هذين الغلامين إلى الشاه ولابد أنه منعم علينا مكرم لنا ؛ فأتوا بولدى أبى صابر إليه ؛ فلما وقعت عيناه عليهما سجد فى الحال سجود شكر لله ، اختص بوصل يوسف مثل يعقوب ، وتخلص بقوّة الصبر مثل أيوب ورأى كواكب الأمانى فى طلوع وزمان المغانى فى رجوع ، وكان يزيد مبالغة فى كل يوم فى العدل والسياسة والأمن والحراسة للخلق ويكثر فى تخضير روضة الملك بعطائه وإهدائه وأدائه وآلائه ، وإذ ذاك أمر بقطع أيدى السرقة وأرجلهم وإبلاغ جزاء معاملتهم إليهم : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) فتعجب الناس بما حدث فكيف يليق بالملك العادل أن يقطع يد الموالى والعبيد وولديهم إليهم لا يعيد ؟ ولم يدر فى خلدهم ما مقدمة هذا الفعل وما تعبئة هذا الحمل، ولم يكونوا يدرون أن تلك الجماعة لصوص أنجاس وظالمون أرجاس .

ولما انصرمت أيام عدة سمعت زوجة أبى صابر عدل الملك وصفته ورأت من أهل الولاية رسوم الانتصاف فاهتبلت يوما فرصة ودلفت إلى قصر السلطنة وأتت مقام تظلم الرعية لتطلب حقها ؛ فأتى بعقبها ذاك الجندى وأمسك بها وقال : أغثنى أيها الملك فأنا من مدة مديدة عاقد على هذه المرأة بعقد المناكحة وموثق عليها بميثاق المصالحة وهى الآن على ناشز تمضى وقتها على خلاف مرادى ؛ فأخذت المرأة فى الصياح قائلة : إن بلاطك حضرة الإنصاف لا مقام الكذب والخلاف ، وهذا الرجل

استـأسرنى فى القرية الفلانيـة ونزع من غاية ظلمه برقع الشـريعة والمروءة ؛ فلمـا سمع أبو صابر حـال تلك المرأة الغريـب وتضرع تلك المتـألمة العديمة الطبـيب ، أمر فـأقيم الحـد على ذاك الرجل وأرسل المرأة إلى السـراى الخاص به ، فـاسـتعـجب الناس لتلك الحوادث واسـتغرب الخلق من تلك النادرات وقالوا : مـاذا حدث للملك ؟ كـان من قـبل فى طريق الورع والآن هـو فى مـسلك الطمع إلا أن مرآة إنصـافه قد صـدأت أو طلعـة عقلـه قـد تربت وا أسفـاه إذ رَجّس تقديـس الشرع بتلبـيس الطبع ونكّس قلوب الرعية بأمثال هذه السيرة غير الرضية :

عين الزمـان الـسيـئـة وباصـرة الدهر الردية

علـهــمـــا أثرا فى تـغــيــر عــدله

وشجرة الورد التى أنعمت بالأمس بورود اللطف

أنبتت اليوم فى الخميلة كل شوك وضرر وشرر

فأدرك أبو صابر بنور الفراسة وأثـر الكياسة أن شائبة الإنكار قد امتزجت بالضمائر، وأن هاجسة الظلم قد اختلجت فى السرائر فأحـضروا أمراء الدولة وأمناء الحـضرة وأماط لـثام الظن السئ ، وقال :\اعلموا أن هذين الغلامين اللذين أتوا بهـما هما طفلاى ، وتلك المرأة المتظلمة هى أم عيالي الحلال قـد استأسرها ذاك منى وقدر اللطف الإلهى أن يبلغنى ولديٍ كيوسف، وأن يأتى بعيالى كزليخا

بمقام التشديد والتهديد : من حفر بئراً لأخيه وقع فيه .

ولما فاتت أيام أخرى خـرج الجيش على ذاك الملك الذى نفى أولا أبا صابر وعـياله من قريتـه من كثرة مـا خرج به من ظلم ، وهب ساقي الحوادث الملح الأجاج إليه ونهب ظلمة الكثير خزائنه لكي يعلم الناس أن عاقبـة الظلم وخيمة وثمرات العدل نـعيمة ، ودخل يوما فجأة قصـر أبى صابر وصاح أيها الملك الأمان من يد خصومى والأمن من نوائب أيامى أنا غـريق طوفان المحنة وحريق نيران الحسرة ؛ فعرفـعه أبو صابر وقال : هاتوا به إليَّ ، وقال ألا تذكر أنك كنت تسود وجه العـالم بظلمة الظلم وتبدد مزاج الملك بقدم الجفاء ؟ أظننت أن عين الزمان لم تشـهد حريفا أجمل منك أو دار بوهمك أن أذن الأيام لم تسمع رديفا أوزن منك ؟ ألم تدر أنك أجزت على المظالم : (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) شـردتنى من وطنى ومسكنـى ووزعتنى فى أطراف العـالم أوردك ظلمك من الملك إلى الهلاك وأعلانى صـبرى من الفقر إلى الملك واليوم يوم المجازاة والوقت وقت المكافأة : (فمن اعتدى عليكم فاعتـدوا عليه بمثل ما اعتـدى عليكم) ولابد من التقيـد بمقتضى النص الكريم :

الطعنة التى تطعنهـا سـوف تنا   لهـا فعليك إيثـار السلامـة

ثم أمر بإيداعه السجن وجلب خـزائن جواهره ونفائس ذخائره ، ثـم قال بختيار :

إذا لم يصدق الرأى العالى هذه المعانى فإن قصة الجميل الكنعانى على أمثال هذا الحال مدلل العدل وموئل العقل . إذا التفت الشاه إلى قول أصحاب الأغراض وإلى مقالة أرباب الاعتراض وكل منهم بسبب حقدى وجسدى ذو مرض وفى إعدامى وإهدامى ذو غرض وعاقبنى وعاتبنى لتباعد عن حلية الصبر وتقاعد عن جلوة العدل ، ويقين أن حالى هذا يتهذب وأمرى هذا يترتب بآثار الصبر والحلم الملكى وإيثار التريث والعلم السلطانى .

ولما بلغ عرض الكلام حتى هذا الحد ووصل طول الحديث إلى هذا القد وكان النهار يهيئ أسباب الارتحال والشمس تعزم حركة الانتقال أمر الملك بالتمهل والتريث إلى الغد ووضع بختيار في الغل والقيد ؛ فذهب بختيار إلى السجن وأسند رأسه على ركبة الحسرة وأوكل قلبه إلى حكم المقدرة :

الليل حبلى ما تلد   والهم ينقص أو يزد

فلا تعتقد بالحبس هما ووحشة   فأول كون الحر فى أضيق الحبس

ولما امتدت نوبة حراسة بختيار إلى اليوم الخامس ووصل انشغال وزراء الملك سمع النجم القابس أتى حضرة الملك الوزير الخامس الموصوف بقوة الرأى المتين والحلم الرزين والمعروف بأنواع الذكاء وكمال الدهاء وأطلق لسانه بعد الخضوع والدعاء والتحية والثناء وقال : أدام الله الملك وبقى ذو الرأى العالى وصاحب

المعالى فى ترادف الحبور وتضاعف السرور ، إذا وُصف توقف الشاه فى تعرف الجُناح بأنه من كمال الحلم وتمام العلمَ لكن فى مقام الجرم الأظهر من الشمس فإن إمضاء العقاب هو محض الصواب وإى تأخير يقع فى أمثال هذه الأحوال فهو دليل فتور العزم وقصور الحزم ، وعدل الملك حصن حصين لخلائق العالم من صدمات النوائب وسطوات المصائب ، وجدار هذا الحصن الحصين إمضاء السياسة والعقاب وباب هذه القلعة المتينة هو إقامة حدود الشريعة ، وحينما يقع فى العقاب تقصير تظهر ثلمة فى هذا الجدار ، ومصلحة الملك والرعية وقرار الدين والدولة تتأتى بسيف العقاب ومجازاة الجناية تتحقق بحسام النكال والنكبة ؛ فأمر الشاه بإحضار بختيار واستدعى الجلاد ، ولما رأى بختيار حدة الجلاد وكدورة ماء الحساد ، قال : أدام الله الملك الباسط للعدل الواسع العقل ، قال الحكماء إن رب الأرباب ومسبب الأسباب ورازق الدواب والحيوانات وخالق الأنفس النامية فى أجزاء النباتات لا يسلم مفاتيح الرعاية والحماية لآلاف الناس إلا لمن هذب ورتب فى شخصه الواحد قوة الفكر وصفاء الروية ونور العقل ولباس العدل المجتمعين لمائة ألف شخص ولا يجعله ولى الملك والسلطنة مالم يمنحه ذاك ، وللملك أن يعجل بالمعاقبة إذا كان فى فواتها خطر أو من عدم تداركها أثر ، ووجودى أنا العبد فى قيد الحبس وطالعى فى وبال النحس ، لى من كل جنس حسد حاسد ومن كل نوع قصد قاصد ، وإن يتأمل ويتمهل الملك

في عقابى ويتأنَّ فى إمضاء الحكم على ؛ فهذا هو الأولى والأحرى فقد قال الحكماء : (الأناة ثمرة الحزم و عقيدة العزم) وإن سمح الملك لأقصنَّ عليـه قصة مؤداها أن الحسـد خصلة ذميمة وعـاقبة الحسد جد وخيمة ؛ فقال الملك : قصها لأسمعها .

الباب الخامس

قصة أبى تمام الوزير والبلية التى أصابته بحسد جماعة الحساد والخزى الذى رآه الحساد وأصحاب العناد والعقوبات التى حلت بهم بسبب حسدهم

قال بختيار: أطال الله عمـر الملك فى عيش لطيف مثل اعتدال الربيع ومعيـشة موزونة يوافقه الزمـان الوديع ، كان بالماضى وزير اسمـه أبو تمام واقف على دوران الأيام ، سـمع من الدنيا جـدها وهزلهـا ورأى من الخليقة مـلكها وعزلـها حتى إنهم ضـربوا فى عهده مثـلا بالثمرات لعدله وأفاضوا القول فـى نتائج عقله ، كان رأيه المتين كتاب فتح النصـرة، وكان توقيع قلمه طراز رداء الدولة ، وكان هـذا الوزير فى حل وعقـد ملك ، وكان هذا الملك يـبدى دائما لرأيه الخـلاف ويهمل فى نصحه سـمع الإنصاف، ولم يكن يعترف بحق مناصحته وفـضله، ولم يكن يعرف حد مراتب عقله ، وكـان يجهـل أن رأى الوزير الكامل هو بسـتان يزيـن سرو بقـاء المملكة، وأن قلم المشـير العـادل حارس يقظان يجلى طريـق لقاء الدولة ، وطمع ذاك الملك فـى ماله والمال مـعـشـوق بهى المنظر

ومحبـوب بفلقة القمر ، وله من أجل حـصول الأغراض واسطة ولأجل عروس الزمان ماشطه ، كان كمالاً لكل فلز ومظهراً لكل عز ، وضاق الوزير بسبب عدم كماله وتجمله؛ فشرح لجماعة من الخواص وطائفة من أهل الاختصاص آلام قلبه ، وقال : ترون أن هذا الملك لا يسد عنى أى إيلام ، ولا يسعد قلبى بكلام ، فلابد على سبيل الاضطرار من مبارحة وطنى الأصلى ولا مندوحة على وجه الضرورة من إيثار الفراق والانفصال على الوصال والاتصال :

إن كنت تعلم أن الأرض واسعة   فـيـهـا لمثلك مــرتاد ومـتنقل

فارحل فإن بلاد الله ما خلقت   إلا ليُسكن منها السهل والجبل

وهنا لا حرمة لى ولا حشمة فأنزل   حيث تكون الحرمة لى والحشمة

إن للـه غـير مرعـاك مـرعـى   ترتعيـه وغـيـر مـائـك مـاء

إن للـه بالبــريـــة لطـفـــا   ســبـق الأمـهــات والآبـاء

لأطيرن من سـوء الأيـام كمـا   يطير سهم قـوس من الأسهام

وأتركـن نعـــمك وجـــداك المطهم فـــلا

يبقى غـير نفـسى الشريفـة وحمـارى الأعرج

وإن أردت بلائى لكل جـــور   فإنى كالنمر لا يرضى ظلمة النمر

وفى آخر الأمـر جمع الوزير حشـمه وحاشيـته وحشـد ماله وماشيـته وحمل كل ماله بد وأهمل كل مـاهو زائد وأخذ يطوف بأطراف الآفاق وبـلاد خراسان والعـراق ، وله فى كل منزل نزل من السرور وفى كل مرحلة حلة من الحبور :

وخير عمر الفتى عمر يعيش به مقسم الحظ بين الجد واللعب
فحظ ذلك من علم ومن أدب وحظ هذا من اللذات والطرب

وقال عليه السلام : سافروا تصحوا وتغنموا ، وأخذ ينتقل من مدينة إلى أخرى حتى حطه الزمان بأرمينية وألآن ؛ فذوقوا خيامهم في ركن من مرج وسفح جبل زى أوج، وكان منزلهم فى هواء صحيح ومقامهم فى فضاء فسيح ، ماؤه زلال ونسيمه من الشمال ، أطياره فى ترنم وأزهاره فى تبسم ، ومكث الوزير هناك أياما عدة وكان خدامه إلى المدينة يأتون فيبيعون ويشترون ؛ معهم مودتهم ، حتى سمع الملك يوما أن رجلا شريفا وسيدا لطيفا أتى ولآيته ومعه حاشية مهذبة وأسباب مرتبة فأرسل إليه جواده الخاص واستدعاه إليه بإعزاز وإكرام وبذل له ما أمكن من التبجيل والاحتشام والتعظيم والاحترام ، وكان أبو تمام قد أتى معه بهدايا غريبة وطرائف عجيبة، وقال عليه السلام (تهادوا تحابوا) ؛ فلما وصل حضرة الشاه قبل الأرض وعرض الهدايا ، فألبسه فى الحال خلعته وأعاده ومعه نقباء حضرته وأصفياء معيته ، وكان الشاه من بعد ذلك يستحضر أبا تمام ويستبشر بنوادره وكلماته ولطائفه ، كلما بسط بساط السرور وضبط لذات الحبور والخمور واشتغل بالشراب الريحانى والسماع الخسروانى واشتعل كل مصباح سرور فى زجاجات النور .

وحدث أن أتى الملك يوما إلى الميدان يلعب الكرة والصولجان وكـان كمـاة الأبطال يثبـون بجيـادهم وعتـاة الرجال يتـلاعبـون بصولجانهم ، كـانوا يتخاطفون برمح السنان الحلقـات ويخرجون من جيوبهم فى آداب الضراب اليد البـيضاء والمعجزات، وكان أبو تمام على دقائق المبـارزة والمحاربة واقفا عـارفا وفى أنواع الكر وعطاف الطرد والفر مـتصرفـا ، عارك كـثيرا من الحـرب والمصاف وذاق عظيمـا من المشوب والصـافى ، كان يعلم السهـم على أى عطفة يمكن رده والرمح بأى طرفة يمكن منعه ؛ فأظهر العجائب فى الكر بالحصان واللعب بالصولجـان ؛ فلما شاهد الملك من أبى تمام كل هذه البدائع فى آداب الطعن والضـرب الرائع امتدحـه وأثنى عليه وبالغ فى توقير مراتبه وتوفير رواتبـه وجعله مقرب مجلسه وأقرب نديمه ومؤنسه، وكان يبلغه فى كـل يوم مددا من تقريبه ولطفا من ترحيبه، وكان دائم الامتداح لشمائله ومخائله فى الغيبة والحضور متصل الأفراح عند تجلية والظهور :

كل ذات فيـهـا من المعـانى أثر   له بها على لبـيب وعاقل خطر

وقال يومـا أبو تمام : إن إكرام العـبيد ليس بـدعًا من مكارم أخلاق الملوك ، فعـادة الشمس هى التنوير وطبيعـة السحاب هى التـمطير ، لكن نظر عـواطف الملك لهـو محـبوب أهل العـالم ومطلوب أولاد آدم؛ فهم إن رأوا النظر الملكى فى خـفى أنا العبد غير متـناهٍ كدرت جماعة بحكم الحد مـرآة قربتي، وأذهلت طائفة

بغبار الغـيرة عين سعادتى ، وقال النبى عليه السـلام : إن الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب :

أنا كـالورد فيـه راحة قـوم ثم للآخـريـن فيـه زكـام

وفى أعين الحسـاد يظهر الصلاح هو الفسـاد والرواج هو الكساد والحاسد يرجم بالغـيب ويبحث عن العيب، ويظن أن الورد اللطيف هو الشـوك الكثيف ويعد فـخر الذوات عار الصـفات ؛ فقـال الملك : اعلم أن سعى الحاسـد فى سوق العقل جد كـاسد وترهات الحساد فى سمع أهل السداد فواسد :

فى سمـعنا وهو مـركـز فـرجـار الحـكمـة

لا ينفـذ إليـه قط مـقـال الحـقـد والحـسـد

والنقش الذى ينقشه على صحيفة المكر حسود

لا يـنـظـر إلـيـــه قـط نـظـر قـلـبـى

وكان للملك أربعة وزراء نصبهم الملك بحكم الفطنة والفطرة وهم مـوضع اللطف الأزلى ومـصنوع الفـضل الأولى على الملك على مـثال العناصـر الأربعة حتى يـقيمـوا نظام الملك بالتـركيب والامـتزاج برأى الملك ذى المحـجـة والحجـاج ، ولما رأى وزراء الحضرة وهم سفراء المصلحة وأمناء الدولة قربة أبى تمام فى حضرة الملك بِتَمّ تام تلاطمت أمواج الحسـد فى بواطنهم وتراكمت غيوم الغيرة فى ضـمائرهم فقال أحدهم لـلآخر بطريق المشاورة إن هذا

الرجل الغـريب سوف يذهب بعـزتنا وأبهتنا ولا يجب أن يـضار شجـر مرتبتنا بعـواصف استيـلائه أو ينهار ثمر درجـتنا بقواصف استعلائه؛ فلابد من طريقة يتبدل بها من القرار إلى الفرار ويتحول بها من عزيمة السكون إلى هزيمة (كن فيكون) ؛ فأشار كل منهم برأى ولم يتفقوا على شيء، قالوا ما تدبير هذا الأمر (إن البغاث بأرضنا يستنسر) فـقال إذاك كـبيـرهـم : لملك الصين بنت ليس اليوم فى جـمالها فى بسـيط العالم بنت حـواء ، هى شمس فى صـورة بشرية وحـورية فى هيـأة آدميـة يقـتطف الـورد لونه مـن طلعتها ويخـتطف السكر حلاوته من قولتها حـوراء إنسية وعذراء قدسية ، خـطبة حسنها على ذروة المنابر ولهفة شـوقها فى قلوب الأكابر والأصـاغر وملك الصين يقـتل الرسول المبـعوث مـن أى ملك يلتـمس المصـاهـرة ويستـأنس المزاوجـة ، وسـوف نحكى للشـاه قصة الحـسن والجمـال وبدائع الكمـال لتلك الفـتـاة فـإن سمع صـفة جـمالهـا ليشعـرن بالحب الصادق نحـوهـا والشـوق المحـرق لها ، فـيطلـب رسـولا مـهذبا فتتـفـق جـملتنا عـلى أن البـسالة على هذا فـى ذات أبى تمـام مجـمـوعـة ودفـع الملمـات وكفاية المهـمـات فى رأيه و رؤيته موضوعـة ؛ فيشـير الشاه على أبى تمام بوجـوب الرسالة ويضطـر أبو تمام إلى القـيام بهـا بوجه العـجالة فـإذا ذهب أبو تمام بات رجوعـه متـعذرا ومـا بات إيابه متصورا .

وفى اليـوم التـالى أداروا الكلام وبالغـوا فى وصف أصناف الجمال وأوصـاف الدلال فى تلك الفتاة حتى ظهـر بالشاه العشق الكلى والميل الأصلى ، والأذن تعشق قبل العين أحيانا .

وطفق الشاه عـائدا من اليوم تاليه بحكم العـشق فى السؤال عن أحوال الصين ورسـومهم وعوائدهم ، فكان الوزراء يهـتزون لسؤاله طربا ويردون عليـه لتشويقه وتعـشيقه قلبـا ، حتى اضطر واضطرب الملك فى قيود العشق، وكانوا فى كل يوم يعطون لغصن عشقه ماءً وفى كل لحظة يهبـون طرة حبه ضفرة وبهاءً؛ فزال عن الشاه المنام والقرار واستحـال عليه السكون والاصطبار فأفضى إلى وزرائه بعشقه ومحبته وقَضَّ عنه برقع عفته وأماط اللثام عن آفته :

وحدثتنى يا سعـد عنها فزدتنى جنونا فزدنى من حديثك يا سعد

هواها هوى لم يعرف القلب غيره فليس له قـبـل وليـس له بعـد

قال : أمـوال الخزائن احصـروها ودخل الأسبـاب والأملاك احرزوها حتى أرسلها جمـيعها إلى ملك الصين وأخطب منه ابنته ؛ فقال الوزراء : لا يمكن إرسال الخزائن والذخائر مالم تعزم عقدة المناكحـة ويحزم عـهد المصالحـة ويجب إرسال رسـول أولا حتى يؤدى الرسالة ويهدى الهدية ويأتى بخبـر ؛ فقال الشاه أحسنتم قولا لابد لهذه الرسالـة مـن رجـل ذى كـفاية وهـداية له منظـر لطيف ومخبر شريف فاطـلبوه ؛ فقال ليس اليوم فى ملك الملك أتم من أبى تمام رجولة؛ فهو بإقبال الملك فى العلم والعقل قدوة وفى الحلم والفضل قبلة ، ازدان بالخُلُق والخَلْق ، وتزين باللطافة والظرافة .

فلما أتى أبـو تمام بعادته المعهـودة إلى حضرة الـشـاه قال له الشاه : اعلم أن لى بشهامة رأيك اعتـقادا وبنهاية علمك اعتضادا ، وقد جدّت مهمة كليـة من المهام الأصلية، ولم نجد حتى هذه الغاية لإتمام هذه المهمة لها أهلا، وكنا نظن أن ذاك المشكل سهل ، لكن اليـوم لما أن الملك له اعتـداد بمكان رأيك الصائب ولـه استـعداد بأركان عقلك الثاقب ولنا مدة ونحن نود أن يجرى بيننا وبين ملك الصين مراسلة وتسـرى لاستحكام المودة بوجـه النكاح مواصلة ، وعلمنا أن لابد لإتمام هذه المهمات من مفـاتيح كفايتكم ولاهتمام هذه المرادات من مصابيح درايتكم ، فسجد أبو تمام وقال يفتديكم عـبدكم بماله وعـمـره حتى يحـصل كل مطلوب الشـاه وجمـيع محبوب الآمر الناهى .

ورتب الوزراء أسبـاب الرسالة من المواكب والمراكب وأعطوه للهدية من الخـزانة زواهر الجواهر وغرر الدرر والأكـسية الغـريبة والأسلحـة العجـيبـة وخرجـوا حـتى منزل تام فى وداع أبى تمام بالشراب والإنشاد وأسباب الاستسعاد ، ولما وصل أبو تمام إلى دار ملك الصين وسمع بخبر قـدوم الرسول ملك الصين أمر بترتيب المنزل والنزل والشـراب والنقل ومـقـابلة قـدومـه بأنواع الألطاف وألوان الاسـتعطـاف ، ولما قدم أبو تمام بالهـدايا والتـحف وأدى التحـية والسلام والأشواق قـام ملك الصين بكل ما بالإمكان من الاصطناع والتعظيم وأنواع التكريم وأمر له بكل ما فى التصور من التجشم والتبجيل والإعـزاز والتفضيل ، ثم قال لأبى تمام يوما :

ملك الآلآن ملك عظيـم وشاه الآن شـاه كـريم ، ولم أجـد فى العـالم خـاطبًـا لكريمتى أعظم منه ولا مـلكا أفـخم منه إلا أننى أعددت لها جـهازا محقرا ورتبت ما لابد منه بقـدر الاستطاعة ، وأنت رسول أمين ورجل برأى متين كمـا يبدو : (إن الجواد عينه فراره) ونسيم عطـر غالية الأمانة تصل من روائح شـمامتك إلى كل مشام ، وآثار كمال الإنسـانية تظهر من نقش براعتك فى كل مقـام ، فعـليك بالذهاب ورؤية ابنتى بعـينك والنظر إليهـا بنظر رضاك وعين يقينك وتلقى نظرة على جهازها :

إذا نلت منك الود فـالمال هـين وكل الذى فـوق التـراب تراب

فإن كـانت لائقة بملك الآلان فـالأمر أمرك ؛ فـقبل أبو تمام الأرض وقال : إن الكريمة التى هى من صـلب الأبوة الملكية وفى معرض المواثقة والمواصلة السلطانية لا يجوز فى العقل والشرع لى رؤية طلعتها أو سماع مقالتها ، وإذا لم تكن لائقة لذلك الملك ما أرسل التقدير الربانى والسعد الرحمانى إلهام الطلب إلى باطنه بل ما وضع القضاء والقدر فى قلبه هذا الجوهر :

كل من كـان لـلـدولة مـهيـأ إذا لم يطلب الدولة طلـبتـه

أما عـن الجهـاز فغرض مـلكنا ليس تحصـيل الملك والمال بل تسجيل الشرف والكمال : (المال غاد ورائح والمودة مسك فائح) .
فقال ملك الصين : أحسنت أيها العاقل الحبيب ورجل التجاريب ، فقد أتى كثير من الرسل لطلب هذا العقد وتحصيل هذا العهد لكن

كل رسول قلت له هذا الـكلام كان يسارع فى الحـال إلى مطالعة مسـتورات حريمى ويـبادر لرؤية محـارمى ومكارمى فلم تكن لى طاقة تحمل ذلك العـار وإمكان حمل هذا الشنار فكنت أفصل فى الحال عنقه وأدركت أن الرسول إذا لم يكن يعلم دقائق الحرمة فإن ملكه أيضـا لا يفقه مـراتب الوصلة وسفـه الخادم دليل على سـفه المخـدوم ، لكنى لما رأيتك بـعقـل راجح وعلم واضح أدركت أن الكوكب يستمد نوره من شمس العلاء، وأن الصدف يستقبل لآليه من سحاب السماء وعكس نور الشمس هو من ذاتها الكاملة وقد عقد جواهر التـجارب العقلية فى معدن باطنك ، والآن فـخدامته ابنتى ونثار عمـره مالى وولايتى ، واستدعى أئمـة الأيام والقضاة والحكام فعـقدوا عليهـا عقد المواصلة بموجب الشـريعة والسنة . فلما ظهر بين الملكين زواج وبين الدولتين امـتزاج صار هذا الفرج والسـؤر تاريخ الدولة وغدا هذا السـرور فهـرست السعـادة ، لما فرغوا من نثـار ذاك العقد وإحكام آثار ذاك العهـد أعدوا الهودج والمركب والموكب وأرسلوا الفتـاة مع جمع من الخدم وأعـيان من الحشم ؛ فأسبق أبو تمام المبشرين وأبرق البشارات :

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا

فلما وصل الخبر إلى الشاه تقدم المنازل والمرحل للاستقبال ، ولما وصلت أحمالها إلى منزل القرب ووقع نظره على الجمال ذى الكمال لهذه العـروس وتجلت له تلك الطاووس تتكسر فى روضة

الوصال وبستان الدلال أمر ففتحوا باب الخزائن وفكوا بدرات الذهب والجواهر :

يجب فتح قفل البدرات ... وتمزيق رقعة أسفل الكيسات

وينبغي بيع كل ما بالدار ... وشراء محبة مثل تلك الطلعة

وفرق على الجيش أموالا عظيمة وبسط للفرح الملكى بُسُطًا فخيمة فظلوا يسمعون الأغانى ويجرعون الشراب الأرجواني، وكان للملك بأبى تمام بحكم آثار الكفاية لديه وأنوار الشهامة عنده استئناس ومن لطائف علومه وبدائع معلومه اقتباس ؛ فقال الوزراء لابد من تدبير لدفع هذا الرجل فالملك لم يعد يتنزه فى رياض تدبيرنا، ولم يبق يتفكه في بستان مشورتنا، وكان من قبل يحمل الأزهار من روضتنا ويشعل الشموع من منارتنا ، واعتراضه هذا سبب فوت أغراض جاهنا ومالنا، وإعراضه هذا موجب انقراض حرمتنا ومالنا ، واتفقوا آخر الأمر على هذا الأمر ، وهو أن الشاه كان يثق بغلامين جميلين عاقلين ومطيعين ، كانا يدلكان كل ليلة قدمى الشاه ؛ فقال الوزراء : شفاء هذا الداء العضال هو أن نعطى العبدين مالا عظيما لكى يحدث أحدهما الآخر بطريق الإسرار حين ينام الشاه بأن أبى تمام لم يحفظ حق نعمة وليًنا ولم يرد على فضله طاعة ولِينًا وأجاز له عقله أن يجعل حق النعمة لولى النعمة حراما وسوغت له مروءته أن يسب للشاه حرمًا محترمًا ، أعطوا الغلامين المال إليهما ، ووضعوا هذا التلقين على

طريق التعليم بباطنهمـا ، ولما دخل الليل وجلس الندماء الخواص وقص أهل العقل وأصحاب الفضل الأسمار والأخبار وانفرج طبع الشاه وتبهرج مجلس المؤانسـة حتى أخذت الشاه سنة من النوم ، وعاد النـدماء أخذ العـبدان يدلكـان قدمى الشـاه ، وقال إذ ذاك أحدهمـا للآخر : إذا لم نكن نخشى الشـاه لفصلنا عنق أبى تمام ابن الحرام من منبته واجتثثناه من شـأفته؛ لأنه يهمل حق ولى نعمته ويسىء القول إلى حرم الشاه ويقول إن هذه المرأة إلّم تكن تعشقنى ما تركت بلادها لتتبعنى ؛ فلمـا سمع الشاه هذه المقولة جاش فى نفسه بحمية الرجولة وخفق قلبه خفقانا وأخذت وساوس الشيطان تشـعل به نار الغضب والشنآن وشـرر حمـية الشـر تحرق بـيدر السكون والصبـر ، فقال فى نفـسه : لو سـمعت هذا الكلام من شخص آخر لحملته على حسـد وغرض ، أما هذان الصبيّان فأى حقد بهمـا لأبى تمام ، إنما يقولان مجتمعين شيـئا يشاع ويحكيان أمرا بعد السماع .

فلما هب ريح السـحر ، وتنفس الصبح الصـادق من جانب المشرق أتى أبـو تمام على قاعدته المـعهودة إلى الحـضرة المشـيدة، فقـال الشاه : لدى فتـوى وأريد منك جوابها ، فـقال أبو تمام : تفضلوا ولو كان للعبد إمكان الجواب قال الصواب . قال الشاه : لو أن أصغر خـان أكبر خيانة تتـعذر حكايتها ولا تتصـور روايتها فبم يقضى الواجب ؟ فقال أبو تمام : جزاؤه إنهاء حياته وقصاصه

إحلال مماته ؛ فاستل الملك فى الحال الحسام وفصل به رأس أبى تمام ، ومن بعد ذلك لم يعد يفضى بوجه المراعاة لكلام أو يرتضى بوجه النشاط والانبساط بمنام لدى ابنة ملك الصين التى كانت جميلة الأوان وأعجوبة الزمان :

ما إن رآنى حبيبى حتى واجهنى بالجار ... كأنما يشعر من ذكرى بالعار

حتى جاءت ليلة بارح الشاه فيها الرقاد وحل به السهاد ، فخرج متنكرا يطوف حول حرمه ، ويسترق السمع إلى ما يقال خلف كل باب وداخل كل حجرة وإلى ما يقتطف من كل شجرة :

يا راقد الليل مسرورا بأوله ... إن الحوادث قد يطرق أسحارا

لا تفرحن بليل طاب أوله ... فرب آخر الليل أجّج النارا

فوصل باب وثاق هذين الغلامين فرآهما فى نقار و إنكار واشتجار كدّرا صفاء مشرب الأخوة بجفاء مكرب الخصومة ، وغيرا قاعدة اتفاق الوفاق إلى مقعدة الخلاف والشقاق، وكان أحدهما يقول : كنت أنا قائل هذا الكلام فلابد لى من القسط الأكبر من المال ، وكان ثانيهما يرد : أتتفاخر بكذب قلت وتتكابر بتزوير فعلت ، ومع هذا ضاعف نصيبك إن لم أكن شريكك أو أقّل نصيبى إذا لم أكن حليفك :

وما هى إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همّمن اجتذابها

فلما سمع الشاه هذا الكلام عَضَّ أصبع التحير بأسنان التفكر ووضع يد الندامة فى جيب الملامة ، وقال ما أشدها حسرة مخلدة، وما أمضها غصة مؤبدة ، وا حزناه على روح أبى تمام التى أزهقت بسبب تخليط طعمة لئام ، ما جرى حتى غدا تعجيلى سبب تخجيلى ، أنا الذى تسببت فى ظهور هذا الغم ، وتطلبت لحلول هذا الغم والألم : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة) . استدعى الغلامين وقال أصدقانى القول : من الوزير الذى لقنكما هذا التقرير والتزوير، واكشفا لى الستر من الإبليس الذى حاك لكما لباس هذا التلبيس ؟ فقال الغلامان : خدعنا الوزراء بالمال ووضعونا بالتعطف والتكلف فى جوال الافتعال ، وأدخلونا فى غرار الغرور .

فاستدعى الشاه الوزراء فى الحال وقال : معلوم لأهل العالم ومحقق لأبناء آدم أن دم المظلوم لا يضيع هدرا ولا بددا ، قال تعالى: (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل)، وقال النبى عليه السلام: (الدم لا ينام) يا طير الشؤم وجمع اللؤم استقررتم فى وكر المكر ونهلتم من غدير الغدر ومن كانت نيته غياض الغيض ، فقيمته أقل من خرقة الحيض ، واليوم هو يوم جزاء المكر والساعة ساعة قصاص الغدر (ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله) وفتوى الشرع بوجوب القصاص وشرط الملك هو الخلاص منكم (ولكم فى القصاص حياة)، وإذ ذاك صاح بختيار

بلسان الاضطرار : للشاه بحكم هذه القصة العفو عن المظلومين وعدم سماع كلام الحاسدين وألا يعجل فى إقامة العقاب .

ولما وصل حد الكلام إلى هذا المقام أخفت الشمس وجهها فى لثام الغمام فأمر الشاه بحمل بختيار إلى السجن ويغلّه وقيده :

قالوا اعتقلت بلا جرم فقلت لهم الليث يرسل أحيانا ويعتقل

لا تجزعن لما يأتيك من نوب فإنها دول لا شك تنتقل

ولما سقط زهر اليوم السادس فى خانة الزمان ودار قرص الشمس فى جنبات السماء والأركان أتى الوزير السادس إلى حضرة الشاه وقال : أدام الله السلطان إن جهات العالم الست قائمة بالعدل، وإن هذه الأفلاك السبعة العالية والسيارات السبع العلوية منتظمة بالاعتدال وعدل السلطان هو حياة شخص الملك ، وكما أن ليس للجسم بقاء بلا روح فإن الملك بلا عدل يفنى ويروح ، ومن آثار العدل عقاب المفسدين والإحسان إلى المصلحين ، وإن طالت معاقبة هذا الغلام ، تجرأت الخلق على الفساد والخصام ، فأمر الشاه بإخراج بختيار من حبسه ، وقال : للمفسدين تأديب الشنق وللفاسقين جزاء الحرق ؛ فأطلق بختيار لسان البيان : لو أن السعاة يتوسلون بالتخييل فلا تأمرن بالتعجيل ولو أن الحساد يطوون سراب الظلم فلا تدعن سراب الحلم (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) ، وفتوى القرآن المجيد والفرقان الحميد تمنع سيد الأنبياء وقبله الأصفياء من التعجل

والتعجيل : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) ، ولا يجوز فى تذكـار القرآن وتكراره التعــجل ، ولا يحق كذلك إعدام حيوان ناطق بقول جمع فاسق غير موافق ، وكل من تعجل الأمر زلزل قاعدة العقل ولاقى فى العاقبة ذاك الندم والتعب الذى حل بأمير حلب ؛ فقال الشــاه : قُصْ علينا ما جرى لأمير حلب وما أعطاه زمان النصب من شراب الجفاء واللغب ؟

الباب السادس

قصة ابن مالك حلب وما أصابه من ألوان التعب وأنواعه وما رآه وعاناه من الاستعجال

فى اختلاف الأحوال ..

قال بختيار : أطال الله حياة المليك فى ظل الحفظ الإلهى وانتظام البلاد الملكية ، كان ملك فى حلب يزدان العقل والأدب. كان رأيه يمنح التركيب لعناصر الإنصاف، وكان عقله يبدى النظم لجواهر العدل . كان حسن الأدب يهب سواد حلب طراوة من لدنه ، وكانت مكارم الأخلاق ترث خطة العراق بهجة من قبله ، وكان له ولد به خفة وعجلة ونزق وقلق . كان كل مراد فى خاطره يختلج وكل تمن بضميره يزدوج ، يريد أن يتيسر فى الحال ويتقرر فى الآن وإن تصور شائبة تأخير عن منه خطر أن يضرب أساس الولاية ويقلب قواعد المملكة ، ولما أن لطف الأزلية وفضل الربوبية قد وشى لباس خلقته بطراز الحسن ونقش جسده برقم التناسب فى الفطرة والتقارب فى الصورة وكان ربيع جماله برياحين الكمال معطرا وعالم إقباله بأنوار الحلال منورا؛ فقد كان له بجماله عجب عظيم وبحسنه تكبر مقيم . كان يقول أنا يوسف الثانى فى جمالى ومثار حسد النرجس والورد فى غمزتى ودلالى .

وابتاع وقتا من الأوقات بضعا من الطرائف من تاجر مصرى ، ولما أن التاجر كان يطوف بأطراف بلاد الخلق ويصل حد الغرب بحد الشرق كان الأمير يستفسر منه عن أحوال ملوك العالم ومراسم أبناء آدم إلى أن قال للتاجر يوما :لابد لى من عروس ليس فى جمالها لها مثيل ولا فى كمالها بديل ؛ فقال التاجر : سمعت أن لملك مصر ابنة ليس لها فى الجمال مماثل ولا فى الخلق والخلقة معادل ، بستان جمالها متريض الحوريات وروض دلالها متنزه البكريات ؛ فلما سمع الأمير هذا المقال قدم فى الحال إلى أبيه وقال : لا مفر لابن آدم من مواسٍ ومؤانس والنكاح سبب تحصين الدين والخل الموافق سبب الفراغ والتمكين، ولابد من استدعاء نكاح أميرة مصر لأجلى والافتداء بكثير النعم والثروة لخاطرى . ؛ فى حصول مراداتك واجتهدت الجهود فى أمانيك وسعاداتك لكنه هو ملك مصر وأنا ملك حلب، لى ملك حلب وله ملك العرب فلا يتوجب بحكم عدم الكفاءة أن يوصف الطلب بالبذاءة وإذا رد الالتماس استقرت العداوة بين الطرفين وظهرت البغضاء والهيجاء بين الملكين . قال : يمكن تحصيل المراد بالمال وتحقيق جملة الرغائب بالفضة والذهب :

إذا كنت فى حاجة مرسلا وأنت بها كلف مغرم
فأرسل حكيما ولا توصه وذلك الحكيم هو الجوهر

فكاتب ملك حلب سلطان مصر وذكر فى كتابه أنه عبده من فرط التواضع وقال : أنا لك عبد مطيع وغلام وديع أرسل خراج ولايتى إليكم وأقبل خطبتكم وسكنكم ، وإن انشغل السلطان بهم من طرف أزلت بأبطال الضرب وشجعان الحرب انشغال السلطان ، واسترقاقٌ قلوب الأتباع بلطائف الأفضال هو عادة أهل السيادة والإقبال ، ولعبدكم ولد أنار مصباح العقل وحذق الأدب والفضل ولو كان الاقتران والزواج غير متصور بين الشمس والسها والأرض والسما ، فمع هذا فلأجل اكتساب الشرف المقيم والانتساب لمجدكم القديم يرغب العبد أن يخطب كريمتكم لابنه ، فإن حدث له بدولتكم قربة واقترنت حاجته بالإجابة والرتبة حصل للعبد سعادات الدنيا والدين وإقبالات السماوات والأرضين ووصله المرادات الأهم ومطلوب سائر العالم ، فلما وصل الرسول والرسالة بأنواع الهدايا إلى مصر رأى ملك مصر هذا التواضع بلا نهاية والتضرع بلا غاية ، فقال فى نفسه : لا يعارنى مصاهرة أمير ، ولكن لابد بالمال أن يمتحن . فلو كان صدق المودة فى ضمائرهم ولطف الرعاية فى سرائرهم اغتنموا بذل الأموال واستعدوا بحصول الأغراض ؛ فاستدعى الرسول وقال : لا أقيم هما من الابنة ولكن والدتها تقول لابد من مائتى ألف دينار نقدا حتى تمضى هذه الحاجة ؛ فلما آب الرسول وأزجى هذه الرسالة أمر ملك حلب بإحصاء ما فى الخزائن من ذهب وما بالأدراج من درر وغرر فكان مائة وستين ألف دينار ؛ فأرسل فى

الحال هذا المال إلى مصر مشفوعا بكثير من الخجل والعذر ، وقال الباقى أرسله بعد شهر بأنواع الهدايا والمراكب والمطايا متعاقبا ؛ فلما علم أمير حلب بأن المدة شهر قال لوالده : أنت تعلم أننى لا أطيق هذه المهلة ولا أذوق مرارة الصبر والهجر ، فضع اليوم على الولاية مبلغ خراج إضافى وسلم الإذن للعمال بتحصيل المال ؛ فقال أبوه : لا يتسع طريق العدل والإنصاف لأن يجرى على ضعفاء الرعية لتحصيل شهوات ولذات نفسية ظلم وجور ولا يمكن لأجل مراد لك جعل آلاف القلوب بلا مراد ولا يجب لمراعاة جانبك جر خلق بلا خيانة فى الجناية ؛ فأجاب الابن : لى شوكة الرجال وقوة تحصيل المال ولا ينقصنى النعمة والحرمة طالما بإمكانى السطوة والقوة :

الليل والخيل والبيداء تعرفنى   والطعن والضرب والقرطاس والقلم

فخرج من عند والده وإذ بقافلة تصل من عدن إلى مصر ، فلما رأى الأمير المال لديها كثيرا والمنال عندها وفيرا أخذ يصرع التجار بطعن السهام وبدأ يقلع السيار بوخز الحراب كان يجدل على التراب جماعة بكل حملة كان يحملها ، واتفق أن كان بتلك القافلة رجل مغربى اسمه غراب اليثربى شجاع مغوار ومبارز ذو اعتبار ؛ فصرخ فى الأمير وبحمله صادقة ألقى به من جواده : (وفوق كل ذى علم عليم) ، مثل : الحديد بالحديد يفلح والسيف لا يرد إلا بالسيف . وأوثق يديه فى الحال وأتى به إلى

مصر ، ووضع غل الذل على جيد وجوده وجـعل قيد القهر مانع قيامه وقـعوده ؛ فلما استراح غراب من مشـقة السفر وراح تعب الحركة عن جثمانه ، اتجه إلى حـضرة ملك مصر لكى يجدد عهد الطاعة ويؤكد مرتبة القربى ، وكان لغـراب بحكم شجاعته كرامة عنده ، وكان الملك يتفـقد أعماله ويتعهـد آماله فى كل أحواله ، وكان غراب واقفا أمام عرش ملك مصر حين وصلت رسالة ملك حلب ويقول فـيها : مضت مدة وولدى عنى غـائب وبدر وصاله عن نظرى غارب، فـلعله جمع تلك الأربعين ألف دينار وقـصد بها إلى تلك الـبلاد بدافع الانقيـاد ، فلو استسـعد بأنوار سـعادة قرب جنابكم ، واستمد من فيض آثار نظركم ، فلتأمروا بإعلامنا حتى يفرغ بالنا ويقر جنانا ؛ فلما قرأ ملك مصر الرسالة بينما كان غراب أمـام عرشـه واقفا ألقى فى الحـال فى روعه أن هذا أمـير حلب الذى أسـره ورسف فى غله وصـفده فـأتى الوثاق وسـأل الأمير ما سبب ما أقدمـت عليه ومن بعث وحمل على ما انتهيت إليه ، وعند أهل المروءة قطع القوافل فعل ذمـيم ومنتهاه وخيم ؟ فأجاب الشاب : جنون الشباب الفتان وغرور إبليس الشيطان قد أوقعـا بى فى هذا المهلك (الشـباب شـعبـة من الجنون) فمـاذا يحدث لو تغض طرفك عن جـرمى ، وتملأ وفاضك بأى مال هو مرادك وتبلغ بشارة الإعتاق إلى سمع الاسترقاق وقد قال تعالى : (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ، فقال غراب : وقعت فى هذه المعـضلة بسبب أربعين بـدرة من الذهب وأنت تعلم أن ليس

من محاباة ومـداراة بين الرجال فى ميدان النضــال . اعذرنى فلم يكن لى بك معرفة سابقة ، وقد صارت اليوم مودتك هى اللاحقة ، ولو أنى لم أبذل فى يوم الاعـتراك وسـاعة الاشـتباك مـا بذلت لكنت الآن دفـينا فى ثرى الفناء دافنا وجـهى فى نقـاب العناء ، وبحكم أصالة نسبك وجلالة حسبك فرعاية منصبك على واجب ، وحق أيادى الملوك فى ذمة الأحرار فرض عين ، وتوجيه هذا المال لتحصيل الآمال قرض ، وسوف أقرضك ما أحببت من مال لكى تسلم صداق العروس وتسلم من محبس الفلك المعكوس ، وأزال بالاعتذار والاستغفـار الغبار الذى علق بقلب الأمير وأجال بأنواع المراعـاة ولطائف الكرامـات بمهـجـته الـسعـادة ورتب له الجـواد والسلاح والجنيبة والخدم والحشم وسـار فى ركبه إلى حضرة ملك مصر ، ولما رأى الملك العريس بطلعته البهية وهيأته المعتدلة وبقوام تام أظهر مسرة بلا نهاية لمشاهدته وأصـدر بهجة بلا نهاية لقدومه فقام بلوازم الإعـزاز ومواجب الاهتزاز وعد حضوره من مـساعدة السعادة واعتبر وصلتـه من نتائج السيادة ، وقال لأركان الدولة : العهد هو عـهد اليُمن والبركـات والسعد الأكبر بطـالعنا علاقات (اليوم خمر وغدا أمر) :

اليوم هو عهد الانبساط والأمـن ومضى عهد الجموح والنفور

ولما دقت آثار السعد خيمتها بالصحراء خارجا

فـالواجب أن تخرج خـيمـتك إلى الصحـراء

وأمر بإقامة الولائم والأفراح بحيث اجتمعت بها لذات العالم واستمتعت بها الأرواح والأشباح وتزينت مجالس البيوت بالأقتراح المرصعة والبسط الملمعة . مازجت ريح الرياحين والراح الأجسام والأرواح وتعلقت ذؤابة الصبوح الصباحي بقهقهة القنينة و الصُراحي ، فدارت المشارب الهنية التي تلقى نسائمها الباعثة على الحياة بدوران الفلك في ثمالة المدام، وارتفعت المغاني الشجية التي تنزل ألحانها العذبة بنشيد الزهرة في ضحالة المقام . امتزجت الخطوط النيلية من عرق حرارة الشراب على وجوه الجواري كالبنفسجٍ والشقائق النعماني ، وازدوجت ضفائر طراتهن من حركة الصبا وتأثير الصهبا على طلعات الغلمان كالمسك والياقوت السلطاني ، فاستخف الجزل كل قلب من عشق حبيب له واستثقل كل رأس من بخار مشروب له ، خلصت عناصر الفرح بتدوير الكأس والقدح الأرواح في القوالب من مخالب النوائب ووضع نظر اجتماع السعود بالعنبر والعود على مجمر الشهود، وكان كل فتى وساقي في طلب الحاصل والباقي يقول شعرا :

عجل بالمدام يا قمري فإن كاسات المدام

صارت اليوم عقيقا وغلت الخدود من لونها بلون الكاس

وبعد ثلاثة أيام منح الأمير خلعة رفيعة وقدم له كثرة من نفائس الجواهر والدرر ولطائف البر والبحر حتى يخير معدن بحار الماء وتفكر نجم السماء الزهراء : متى ولدت مثل هذه العجائب

ومتـى بذت مثل هذه الغـرائب ، ثم قيل للحكـماء أن يخـتاروا الطالع الميمـون والنجم الهمايون لكى يرتبوا به الزفـاف والنثار .
وفى اليوم التالى حين جلسـوا فى مجلس الشراب ليقضـوا ساعة فى السـعادة ويمضـوا لحظة فى اللذاذة نهض الأمـير من مـجلس الشراب حـتى يستـريح برهة من شراب الأقداح المتـواترة ويسكن هنيهة من التـهاب الشراب بنسيم ماء ورد البسـتان وحلاوة جلاب خضـرة المكان؛ ففرش فى الحـال الغلمان فرشـا بالديوان الخاص وأتوا من بيت الشـراب بالمبردات والمفرحـات وأحضـروا ما يدفع بخار الخمار من مشموم ، وما يجمع اللطافة مع الخفة من مطعوم ، وأرجع الأميـر الغلمـان وأخذ يطوف بمفـرده فى أطراف البسـتان وأخذ يطلب فى بستان الطلب الأزهار بلا مزاحمة الأغيار ، فرأى إذ ذاك قبـة منصوبة وصفـة منقوبة ، فتطلع إلى تلك القـبة لكى يرى أى مـتـريض هذا أو أى روض هو ، فـسمع صـوت نسـوة مبتـهجات بذاك العرس بـحكم الطرب وسمع لحن المطربات وهن مسرورات فى ذلك الزفاف بحكم الانبسـاط ، وعاين شقا فوضع عليه عينيه حتى يشاهد حرائـر مصر وينظر خواتين العصر وكانت عروسه قد توشت بالجواهر والحلى والأكسية والحلل وجَلست بين نسوان مـصر العـيان ؛ فظل واضعًـا عينيـه على ذاك الشق ينظر وفجأة وقعت عينا الفتاة على ذاك الشق ، فقالت لعله غريب أتى ليطل على المحـارم أو جاسـوس يرى العروس ، فـأمرت خـادما فأحـمى قرنين من الحديد وغمـسهمـا فجأة فى عينيـه ، وصرخ

الأميـر وسقط مغشـيا عليه ، ولما سمـعوا صوته خفـوا فى الحال فرأوا الأمير بطلت عينـاه النرجسيتان واضمحلت سواد حدقـتيهما وتركيب طـبقتـيهـما ، فارتفـع الصراخ من سرايا الحـرم وانقلب أولئك الخلق السـعداء إلى مكروبين ، وأولئك الجـمع المسروررون إلى محزوِنين ، وتحول الفـرح إلى ترح، وتبدل السرور إلى هم ونفور، نرجسه المخمور ضنا بشوك النوائب، وهذا من عجائب الأيام .

وفى نهـاية المنقلب انقلب إلى والده بعد مـدة مديدة حـزينا كمـالك الحزين ومـعه عـروسه فى هودجـها وقـد فارقـته الروح الباصرة التى كانت تتريض الحـديقة الصديقة ، وتفرق اصطرلاب بصره الذى كـان يأخذ ارتفاع النظـر ، أصابت عينيـه عين السوء وسملت باصرتيه آفة التعجيل .

القصـة ، صارت عـينا والده فيـضان غـما لعـينيه واحـترق وانشوى قلب الوالد هما لقلب الوليد وقال: يا روح والدك كل ما يظهر بعـد القضاء الربانى بسـبب التعجـيل الإنسانى ، ولو كنت تصبّرت فى صـحن ملكتك ومركز دولتك لأبلغـتك عروسك وما رأيتك فى هذه المحنة ، ثم قال بختيار : أيها الملك لا تعجلن إذن بقتلى لأن العجلة عاقلتها الندامة والأناة نهايتها الكرامة ، ولما بلغ بختيار بالكلام الختام وبالحكاية الإتمام أمر الشاه بحمله إلى السجن وإمهاله حتى الغد ، فتحير بخـتيار ، فأى طالع هذا نصيبه الحبس وأى زمان هذا خلاصته النحس .

ولما أفضت نوبة حبس بختيار إلى يومها السابع بلغ تظلم وزراء الملك إلى الفلك السابع ، فأتى إلى الملك الوزير السابع وقال : أدام الله الملك ، هذا الطفل فى كل ليلة يرتب أعاجيب الأكاذيب بقوة فطنته وهى من خصائص فطرته ، ثم يتخلص فى اليوم التالى بهذا التشبيب والتركيب من العقاب، وللملك خلق كريم وقلب رحيم وحين يلمس فصاحة لسانه وقدرة بيانه يأمر بإمهال العقاب فلا يجب تركه اليوم حتى يجعل نفسه عندليب النظم والنثر وخطيب الدهر والعصر ، فمُر حتى يعاقب سريعا لأنك إن انشغلت بسماع أحداث كلامه واستماع أضغاث أحلامه تأخر هلاكه وتقرر بقاؤه ؛ فأمر الشاه بالإتيان ببختيار من الحبس وأراد الكلام فصرخوا به ، فقال : أدام الله السلطان إن شرف الإنسان فى قوة البيان ، وقال تعالى : (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) وسماع ظلامة المظلوم من كمال العدل والإحسان والفضل ، وقال النبى عليه السلام: (استماع كلام الملهوف صدقة) ، ثم قال : للسلطان نفاذ الأمر وإمضاء العقاب يتيسر له ذلك وقتما شاء ، فأمهلنى حتى لا يجرى لك ما جرى للشاه (بهكرد) من الشاه (هماى) ؛ فقال الشاه قص قصتهما أسمع لك .

الباب السابع

قصة الشاه بهكرد والحوادث التى أصابته من الزمان والمحن العديدة التى عاناها .

أطلق بختيــار لسان البيان ويبدأ هذه القـصة بقوله : أدام الله الملك وأطال حياته ، كان قبل هذا الزمان الدائر ملك جائر ، كان ملكا بغيـر إنصاف على بساط هـذه المرحلة للإتلاف ، كان يذوى بظلمـه البلاد ويشوى بجـوره الأكبـاد واسمه بهـكرد - أى فاعل الخيـر - لكن لم يكن تحت ظلال السـقف اللازوردى من يفـوقه ظلما ، جمع الخزائن بلا عدد والدفـائن بلا حد من أموال اليتماء وذخائر الكرماء واسترق أميرا كان اسمه تيز هوش، كان من دوحة ملكية وشجرة سلطانية ، وكانت تبدو عليه أمارة الإمارة والعرق الطاهر للسـلطة والأصل والنسب للملوكـيـة ، وكـان الملك قـد وضعـه على هيئـة العبيـد ، فعود طبـعه العـديم الإنصاف على الاستخفاف به وغلبت نفسه الأمارة قلبه العلامة ، ولم يكن يخبر أن الظلم أوله أعراض وآخره انقراض ، ولم يكن يدرى أن العدل ميزان الله بين العباد وهو فى الآخـرة خير زاد . وقصد يوما الملك المصطاد واصطحب مـعه الفـهد والبازى المـطيار والشاهين الـطيار

وأركب معه جـمعا من الغلمان فكانوا يصـيدون التذرج الملون فى أطراف المروج، وكانوا يمسكون القبج والطيـهوج والأرنب والغزال فى الصحـراء والبيداء ، وشـاء الله أن تيزهوش رمى طيـرا بسهم فـأخطأ السهم الطيـر وصلم أذن الملك ؛ فـقبض فى الحـال على تيزهوش وقيد وصفد وأمر الشـاه بفصل عنقه ليكون عبرة للعالمين وموعظة للمفسـدين ؛ فناح تيزهوش وتدحرج فى التراب ووضع جبـهة التضـرع على تراب التخشع وحـثا تراب ندامتـه على فرق غرامته ، وقال : يعلم الملك أن هذا الـفعل كان على سبيل الخطأ ظهر منى من تأثير القـضا ، فلا تبطل كليات عفـوك وهو مستند العالمين فى مقابلة خطئى الجزئي؛ لأن عـفو السيد إنما يظهر لمقابلة ذنوب العبيد ، فـإنى العبد الذى إن كان قد اقترف ذنبـا لم يقترفه أحد فى العالم ، فأنت السيد فاعف عفوا لم يعفه أحد حتى اليوم من أبناء آدم :

إن أنا اجترحـت ذنبا لجهـالتى	فاعف عنى أيها الشاه ما استطعت
يستوجب العفو الفتى اذا اعترف	بما جنـاه وانتهـى بما اقترف
لقـوله «قـل للذيـن كفـروا	إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف»

فترحم الملك على تيزهوش وشطب بخط العفو جريدة جريمته وسحب ذيل عفـوه وإغضائه على ذلته وحالته ، وكـان لتيزهوش هذا أب كان يقـال له الملك هماى ؛ فلما اختـفى تيزهوش أرسل الباحـثين عنه ليل نهـار إلى كل الأقطار وأجلس المترصـدين على

رأس كل طريق ومسار ، وكان كل من يطلب مقـابلته يظنه مبشرا بعودة ولده ، وكل من كان يخف لرؤيته يحـسبه رسولا من فلذة كبده ، كان يناجى بقلبه الكئـيب ابنه الحبيب إذا ما سمع صوتا ، وكان يثقب دموع الحسرة بـألماس الحيرة إذا ما رأى شابا ، وحدث أن رسـول الملك همـاى لما وصـل دار ملك الملك بـهكرد رأى تيزهوش فى سماطين الغلمان خاضعا ويديه المعقودتين على صدره واضعا ، فـاهتبل فرصة وأبلغ سلام والديه إليـه ، قال : مضت سنوات وأنا أبحث عنك فـى أطراف العالم، والآن قـد وجـدتك فلابـد لهذا الألم من دواء ولهـذا الهم من انقضـاء ، وإن باعك اشـتريتك بأى ثمن ارتضـاه وإن وهبك قـبلت منه عطاه ، فقـال تيـزهوش يمكن معـالجـة حوادث الأيام بالمداراة ، ومـداواة الآلام والأسقام بالصبـر والمواساة ، ولعل فرصة تسنح أجد فيـها لنفسى من قيـد المذلة خلاصا أو تدبيـرا أطلب به من هذا الرق مناصا ، وليس بالتهـور والتعجل تحصل على مـا تريد أن تحصل ولا يمكن تحقـيق الأمانى بغيـر الصبر والتـأنى ، وذات ليلة عقـد قلبه على عزيمة الفراق وشـد رحل (الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين) على مركب الاشـتياق ، وبعـد تصميم العـزم وتأمل الحزم توكل على الخلاق (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وفى النهاية أبلغه اللطف الربانى والفضل الرحمانى إلى موطنه ومسكنه ونور بواصر والديه بوصاله ، وفى اليوم الـتالى أخبر بهكرد فعـجل بالفرسان إلى كل مكان فلم يجدوا لتيزهوش أى عنوان ، وحدث بعد مرور

الأيام ودورة الأعوام أن قصد بهكرد الصيد فظهر له غزال فهمز الملك جواده فانطلق الغزال يعدو والملك فى إثره مجدّ ، وبلغ الغزال ساحل البحر فألقى بنفسه فيه ، فرمى الملك بنفسه فى البحر فى أثره ، فظل الجواد يسبح بقوته ويعوم بأمل نجاته لكن حيلته لم تفد مع تلاطم الأمواج وهيبته البحر الأجاج وهلك فى النهاية الجواد وأخذت الرياح تحرك ذاك الجواد الهالك ، وقد عقد بهكرد يده بذنبه ويطوف معه حيثما طاف ، وفى النهاية هب ريح عاصف وهواء قاصف فألقى ببهكرد وجواده على الساحل ونظر الملك فراى مدينة على بعد فقال الحمد لله اذ رأيت مصرا ووصت عمارا وانطلق حتى وصل المدينة، وكان النهار قد بلغ المغيب والليل بأقرب القريب ، سقطت الشمس فى منقار غراب الغروب وشق الليل النقاب الأكدر عن وجه الكواكب والقمر ، ودخل بهكرد المدينة لا يعرف بها طريقا ولا يألف بها منزلا ، وكان ينشد هذا البيت :

إلى متى يظل الليل فى ليلتنا هذه منزلنا

وأين الغد الذى يحل بلطف مشكلنا

فرأى دكانا مفتوح الباب ، فقصده ونام على مصطبته، وكان لتاجر له مال ونعمة وأنواع الثروة ، وفى تلك الليلة أتى اللصوص إلى الحجرة بأعلى الدكان وقتلوا التاجر وحملوا أمواله ونقده فانحدر دم التاجر من الحجرة بأعلى الدكان وخضب عباءة الملك النعسان :

لـى فى كـل لحظـة هم مـــتـــجـــدد
ويتشب بى مـائـة سهم جـفـاء بليل مـسـود

وشاع الخبر فى الصباح وعمت المدينة الضوضاء فانطلق السكان لإمساك اللصوص فوجدوا بهكرد بعبـاءته المخضبة بالدم ، فاستأسروه وقالوا وجدنا السارق والقـاتل ، فأتوا به فى الحال تجلله آلاف المذلات والعقوبات إلى الملك هاماى أبى تيزهوش فأمر بإيداعه السجن :

مسكين من اشتبك بالآم الدهر أجل ليس من قضاء السماء مفر

ولما حبسـوا بهكرد كان بجوار المحبس مـيدان يعدو به الملك بجـواده ومعه الفـرسان ، و يتـلاعبـون به بالكرة والصـولجان ، وخرج يوما الملك إلى الميدان ووافقه ابـنه تيزهوش ورافقه بالخدمة ، ومن تأثيـر القضاء طار عـصفـور من الفضاء وحط بـأعلى جدار السجن ، ونشط يشدو بنغم يثير الشجن ، فألقى بهكرد العصفور بطوبة ، فـأخطا الطيـر وأطار أذن تيـزهوش ، فـعـدا فى الحـال الغلمان وحققوا فى الأمر فسمعوا المساجين يلعنون بهكرد ويندبون حظه وقالوا : ما أشنعك من شخص لا يتولد منه غير الضرر ولا يتجدد منه سوى البـغى والشرر ، وحمل بهكرد إلى الملك هاماى وأحضـروا الجلاد وعـصبوا عـينى بهكرد فنظر الملك هامـاى إليه فوجده مـصلوم الأذن ، فقال لغلمانه مـا أكثر الفضـائح والقبائح التى ارتكبهـا هذا الرجل حتى قطعـوا أذنه ؛ فقـال بهكرد حانت الساعة التى أودع فيها حـياتى الأولى وحان الوقت الذى ألحق فيه

بالمولى ، اعلم أننى كنت ملكًا له حشم مريع وخدم مطيع غير أن دعاء المظلومين أصـابنى فأزال سعادتى وبخـتى وملكى وتختى ، هوت كواكب أملى فى إدبار الهـبوط وانحدرت سفـينة نجاتى إلى غرف القنوط ، فـقال : ولماذا صلمت أذنك ؟ قال خـرجت يوما للصيد وكان لى خادم اسمـه تيزهوش، وكان يقول إنه أمير زال عنه ملكه ، و مضى عنه تملكه :

طعمـت بمراد قلبى الدنيا لحظة لكنى الآن راضٍ بما هـو كائن

ورمى هذا الخـادم فى مصطادى طيـرا بسـهم فأخطأ السـهم وصلم أذنى فى رأسى فقـابلت منه السهو بالعـفو وسلكت طريق المجاملة مع خطئه ولو كان فاحـشا ، ولما علمت أن شراب العفو شراب لذيـذ خاصة من يد مـجرم بلغ الخـوف على حيـاته أجلَّه وصار نهـاره ليله فأقللت لـى أذنا ولم أعرك له أذنا وهذه قـصتى قلتـها فـإن تعاقب فلك الحكم ، وإن تسـامح فلك الحمـد ، ولما سمع الملك هاماى هذه الكلمـات أرسله فى الحال إلى تيزهوش ، فلما رآه تيزهوش قبل الأرض بين يديه ، وقال ما الذى حدث لك أيها الشاه العظيم والملك الكريم ؟ وما الذى جد عليك ؟ أى لون خلطه لك الفلك المـشعـوذ وأى نقش خطه لك الزمـان المُنَبِّـذ ؟ فقال أجل نظرك إلى حالى يغنى عن سؤالى :

عاينت من دورة الزمان وعجائبه مـا أعـجـز عن شـرح نوائبـه

فملك العالم فيه ألم ووروده شوك وعـزة وذل وراحـتـــه تعب

فقال تيـزهوش : وكيف وقع قتل هذا التاجـر ونومك بدكانه الفاخر ؟ فـشرح بهكرد ما جرى وكان يـتحدث حين وصل جنود الملك قـابضين على أولئك اللصوص ومـعهم مـا نهبـوه من مال وأرسلوا بهم إلى السـجن ، وأمر المـلك هاماى فـأنزل بهكرد فى قـصر رفـيع وروض بديع وعين له الندمـاء الظرفـاء والمسامـرين اللطفـاء لخـدمـته وأرسل له مـن الكساء الأطـلس والششـترى والجوارى كالزهرة والمشترى .

وجلس يومـا بهكرد والملك همـاى وتيـزهوش فى مـجلس سرور وموضـع حبور دارت فيه الأقـداح بالصبهاء وتواتـرت فيه أمداد الهناء ففـاضت عينا بهكرد بالدموع ، فـقال الملك هاماى : المجلس مجلس اسـتعاد والـوقت وقت الوداد فماذا حـدث حتى فاضت منك الدمـوع اللهم إلا حنينك إلى الموطن واشتـياقك إلى المسكن قد حرك فؤادك ؟ فقال : ليس لهذا السبب، ولكنى أتمعن فى صنع الله وقـدرة الرحمن كـيف يرتب لكل معـاملة مـجازاة ولكل فعل مكافأة ، فإن كان تيـزهوش لأيام عديدة أسيرا لدى فقد جعلنى الحق تعالى أسـيرا لديكم ولو أن تيزهوش صلم أذنى خطأ فإنى قطعت أذنه سهوا، وإن كنت عفـوت عن جنايته فقد غفرتم ذلتى هذه لكى يعـلم العالمون أن لـكل شجـرة تغـرس فى روض الزمان لا تبطل ثمـرتها وكل بذرة من خيـر وشر تودع الأرض لا يضيع ريعها :

الخير يبقى وإن طال الزمان به   والشر أخبث ما أوعيت من زاد

قال بختيار إذاك : إذا لم يسبغ الملك هاماى لباس عفوه على الملك بهكرد بمجرد أن زلّ وعجل له العقاب لكان قد ظلمه وجنفه بل أبقاه بالسجن حتى امتاز الحق عن الباطل وانحاز الكامل من الخامل ، قال تعالى: (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة) لم يَخْطُ أحد فى هذا العالم خطوة فى تمهيد الخير والشر وتقرير النفع والضر إلا ورأى جزاء ما فعل ولم يصبه وفاق ما جعل فلما عفا بهكرد عن سهو تيزهوش فلا جرم أن عفوا عنه ، فإن يتأن الملك فى عقابى فإنى واثق بفضل بارئى من ظهور براءتى .

ولما وصلت قوافل الكلام إلى هذه الخطة وبلغت وقائع الحكاية إلى هذه النقطة أمر الشاه بإعادة بختيار إلى السجن وإيداعه منزل الحزن وحسن الحاصرون اللطفاء هذه الحكاية وأثنى الندماء على هذه الرواية .

وفى اليوم الثامن حين كسا الشعاع المزين للشمس العالم بالأكسية النورانية أتى عرش الملك الوزير الثامن، وكان مشير العدل وسفير العقل وقال : أدام الله السلطان أمام الكلام الذى بلا قوام من هذا الغلام تأمر له بالتوقير وترى فى إقامة عقابه التأخير، وهذه المقدمات للملك سبب المضرة وهذه الحالات للرعية موجب الجرأة ؛ فقال الملك : قولوا للجلاد أن يدبر أمر فصل العنق عن الفقار أو يرتب الرجم بالأحجار .

فقال بختيار : أبقى الله السلطان لا يجدر ترك التأنى فى مقابلة التجنى ولا يليق العقاب للأبرياء لقول حُسَّاد أدعياء ؛ فقال الملك تقول مستورات الحرم إنك كنت تلقى الحجر من فوق السطح وترمى الغدر والمكر من أجل الفضح ، فقال بختيار : أيها الملك للنساء كيد عظيم ولناقصات العقل غدر أليم فلا يجب إهدار الدم للمظلومين لمجرد أقاويلهن ولا يليق آثار غبار الظلم بسبب أباطيلهن، وإن يسمح لى الشاه أقصنً عليه قصة فى هذا المعنى ، فقال الشاه : أسمع وفائدة الحكمة أجرع .

الباب الثامن

قصة الملك داد بين ، وتشتمل علي قصة مكر النساء وأنواع غدرهن

قال بـختيـار : أبقى الله الملك المكرم وأدام الشـاه المنعم فى تواتر الإقـبـال وترادف الكمـال ، كـان فى قـديم الدهر ملك موصـوف بجمال العقل وكـمال العدل مـعروف بالعهد والميثاق ومكارم الأخلاق وأولياء دولته في بساتين النعمة وأعداء مملكته فى مضايق المحنة ، كـان يجالد بسيفه لمدة مديدة بجيوش شديدة فى إيران وتوران حـتى تهيـأت مملكتـه وتهنأت ولايته فـصار أعـداء المملكة مقـهورين وغدا خصـوم دولته مهجـورين وزالت القلاقل وصارت الأمور بما تشتهى القلوب ، فأمضى ليله ونهاره فى شغل بلذته ونهمـه وفى ملل من حشمه وخدمـه، وإذا لم يلتفت الملك لحشـمه وخـدمه انقطع عنهم عطاه وصـلاته وامتنع عنهـم رواتبه ومرتباته، وصار من كان له يسار يمـضى أيامه فى افتقار، ومن كان له تمول يبدى التـمحل وأخذ بعـضهم يقـول للآخر : ليت خصـما يظهر للملك حتى ينتهى كسادنا إلى رواج ويقع بالملك لنا احتياج فهو فارغ البال منا ممتلئ الرأس بالمتعة ، عمله تجرع أقداح الشراب

وشغله سماع الأرغن والرباب ؛ فأتوا الوزير وقالوا : رأى الوزير سبب تمهيد مصالح الخدم وأساس ترتيب مناجح الحشم لا ينظر إلينا الملك فخضعنا بسبب الفاقة وعجزنا من جراء الفقر ؛ فقال الوزير : ابذلوا فى هذا الأمر صبرا حتى ننظر فيه نظرا ، تملك جملة أقاليم العالم إلا إقليم الروم بسبب بعد الشقة وكثرة المشقة ، فتأخر فى هذا الفتح، وسمعت أن لقيصر الروم ابنة هى فى الجمال غاية الحسن وفى اللطف مرهم الحزن فإذا مضى هذا الرأى انقضى مأمولكم ، وفى اليوم التالى أتى حضرة الملك وبدأ فى مجلس الخلوة الحديث عن أطراف المملكة فأخذ يقرر له حديث ملك الروم ويدبر له استخلاص تلك التخوم وقال : أيها الملك جعلت الأطراف والأكناف ملكا لك ونصبت سرادقات الأمر والنهى فى البحر والبر فإن تحول زمام فتحك إلى الروم سار صيتك العظيم على لسان كل كليم ودخل هذا الملك القديم فى تصرف الملك الجسيم ، وأنهى الجواسيس بأن للقيصر ابنة هى فى الخَلْق فهرست الكمال وفى الخُلُق لطيفة صنع ذى الجلال ولا تليق إلا بحضرة الملك . ؛ فلما بلغ سمع الشاه حديث ذاك الجمال والدلال جاشت فيه همة الحصول عليها وثارت فيه نهمة الوصال والوصول إليها ،فكتب الرسالات : صار فى معلوم العالمين أنى طوعت بسيفى ملك البسيطة من حد الشام إلى أقصى الصين واستوليت بثبات القدم على جهات العالم ، فلم يعد فى ملكى مزاحمة ولا فى دولتى مخاصمة وحيثما ظهر شوك عداوة اقتلعناه ووقتما بدا

شك مـخالفـة دفعناه والأمل أن يقع بيننا مـواصلة وتحدث دائـما مراسـلة ، وقال للرسـول : حين يقرأ الرسـالة قل له إنى لكريمة الملك خاطب وفى دولتـه وسعادته راغب وكـل ما يحكم به من الخزائن والأموال مبذول وكل ما يشير به من الملك والولاية مقبول ؛ فلما بلغ الرسول تلك الجهات وأبلغ الرسالات تغير القيصر ومزق الرسائل وقال : ابنتى لا أعطيها لكل غمر وخامل ولا أحمل هذا العار على الكاهل ، فخجل الرسول ومل وعاد وقال : فى بلادنا عين القـيصر ضـئيلة وسلطتنـا عنده ذليله ، فأجـابنى باستـهزاء واستـخفـاف ولم يبد شـيئا من الـكرم والإنصاف ، ففـتح الملك خزائنه فى الحال وفرق على العسكر المال الأكبر وقال رتبوا أسباب الحرب وأعـدوا الحول والخيل وألقى فى مـقدمة هذا الأمر حـبال التدبير مع كل وزير وأمضى عزيمة الفتح والتكسير ، وأرسل الشاه جـيشـا عظيمـا طليعـة له وقال : إذا وصل حـد الروم وقت أن يتخـضب الرداء الفيروزى للسـماء بعكس لون سيـوفكم السافكة للدماء ، ويتقلب الشجـر والمدر لتلك الديار من سفح دمائهم إلى لون العظلم فليس شـرابكم إلا دماء الأوداج وليس عـملكم غـير الإغارة وقطع الفجاج .

فلما وصـل الجيش إلى تخوم الروم وضـعوا فـيهم السـيوف وأعملوا فـيهم الرمـاح وجعلوا الطيور فى فـضائها تـبكى قتلى الصحراء وسلقـوا الأسماك فى مائها بنار الهـيجاء فبعث القـيصر بطريقا بمائة ألف فارس متنكر للمباغتة ليلا والكمين والاستتار وأخذ

القصاص والثار ، فتواجه الجيشان فى مقابلة وتواقع المبارزون فى مقاتلة ولما دخل السنان مع السنان فى مسارة كتمان والسيف مع السيف فى طيران ، وطيرت الطيور الجمادية الصورة ، الحديدية المنقار ، الحيوانية الطيران ، المدورة الطبع، الطويلة الطبيعة ، الخشبية الفم ، الغرابية الجناح ، العقابية الارتياح ، الأرواح الحية من الأعشاش الواهنة للإنسانية العاجزة على ممر نصف الدائرة المحكمة الطاهرة اللباس العظمية القلب الخشبية الجسد ، وأخذت رياح النكباء من مهب القضاء تثير التراب فى وجوه الروم وتقذفهم بالأسنة القاتلة من ذرات الغبار فانهزم فى الحال جيش الروم و انهدم أساس القيصر ، قال تعالى: (فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت) فقدم البطريق إلى القيصر وقال : ليس من المصلحة المحاربة مع هذه الجماعة فكل منهم (رستم) حرب امتطى صهوة فيل بل ضرغام بيده حسام ؛ فلما سمع القيصر كلمات البطريق استدعى وزراءه وحكماءه ، وقال رأيكم يعرف علاج أمراض المُلْك وعقلكم بمكنته حل المشكلات ، فيجب غرس غصن المصلحة التى لا مناص منها وينبغى قراءة رسالة المساهلة التى لا فوت منها ؛ فقال الجميع : المصلحة أن تؤسس بوجه المناكحة المواصلة وتمهد بين الملكين المصالحة ؛ فأرسل القيصر رسولا كاملا ومعه جماعة شيوخ حكماء عرفاء إلى الشاه ، فبالغوا له فى الاعتذار وأبلغوا الهدايا والتحف الكثار، وقالوا لو أن سعادة الملك بنكاح كريمة القصر فعقدها وقتما يشير، إنه لموثوق

وعـهدها إنه لمعـقـود ، وفى اليوم التـالى رتبـوا نثار العـروسين وأرسلوا البنت بجـهاز يشـتمل على لطائف البـحر والبـر ومزين بنفائس العصر وعرائس الدهر إلى الشاه : (وافق شَنّ طبقه وافقه فاعتنقه) ، وكانت هذه البنـت قد زوجوها من قبل بزوج فولدت له ابنا وقـتل الأب فى الحرب ، فـقال القيـصر لابنتـه يجب ألا تظهرى أمر ولدك لأن أنسى بشمائله وسعدى بمخائله :

الآن صار الأمر على اتفاق بيننا ولن أستريح فى هجرك إلا به

ولما شـاهد الملك جـمال تلك المـرأة افتتن بلطـف صورتهـا وحسن هيأتها وقال : وصال هذا الجمال عنوان الدولة والنظر إلى هذا الخدّ فأل السعادة :

يامن بحسنك وجمالك ولطفك لم ير أحد من يشابهك فى العالم

وإنى لأعـجب مـن امـرئٍ يـــــراك فـيـفـنـى

فأرسل إلى القـيصر على سبـيل الهدية ما كـان بالخزائن من طرائف المعدن والبحرين وما بدار السلاح من سلاح وغلمان وعاد إلى البلاد بفؤاد ملؤه الإسعاد ، وأخذ يمنح بكل يوم خلعة عظيمة لزوجتـه لإسعادها أو درج جـواهر لإفراحهـا ، لكن المرأة كانت تسرى بها نار الاشـتياق لابنها الوحيد، وتـبكى فى خلواتها لغاية التمنى ونهاية التعني، وفى النهاية صـار قلبها من الفراق بلا طاقة وروحها من الاشتياق بلا استطاعة :

إن يـــوم الفـراق قـطــع قلبى   قطع الـله قلب يـوم الفــراق
لو وجـدنا إلى الفراق سـبيـلا   لأذقنا الفــراق طعم الفــراق

وأخذت تفكر فى ليلهـا ونهارها بقوة الفكر وتحـريك الشوق فى حيـلة تحصل بها عـلى ولدها وتصل بخيـالها إلى جـماله .
وذات يوم طفـقت تشرح للشـاه عن أبيهـا الملك وتقص له أنواع الغـرائب والبـدائع التى بخـزائنه ، ثم قـالت : لأبى غـلام فى طفولته له عقل الرجال وفى عهد صباه قوة الأبطال صار فى آداب السلاح آية ويبلـغ فى أبواب العلوم الغاية ، أعجـوبة الدهر ونادرة العصر ، فقال الشـاه ، لو طلبت هذا الغلام فهل يرسله ؟ قالت : لا يمكن ذلك لأنه أحب إليه من نفسه ، ولكن لو رغب الشاه هذا الأمر فلدى تدبيـر وهو أن أحكى صفتـه لتاجر فـيأتى به إلى هنا بالوعود الجـميلة ؛ فـأعطى الملك الأموال الوافـرة للمتـاجرة إلى تاجـر حاذق ومـاهر كان يحـذق العـربية والرومـيـة وطـوف فى أطراف البلاد تطوافا وطوى المشـرق والمغرب ورأى الربع المسكـون وخـبر أسـرار هذا الفلك المكنون ، رأيه ثاقب ومكره صـائب ، وأبلغت ابنة القيصر التاجـر سرا بأن هذا الغلام هو ابنها ولابد أن يحملـه على محمل الإكـبار ومـهد الإيثار ولا يهـمل فى الطريق دقائق الاحترام وأنواع الاحتـشام، وأن يقول له أن أمه تطلبـه وإذا بلغ به هذه الديـار جعلـه فى زى الغلمـان وطوى هذا السّـر طى الكتمان .

ولما وصل التاجر إلى بلاد الروم أزجى فى فرصة لطيفة رسالة الأم إلى ولدها ففاضت عبراته وقال : إنى لأسعد إذ تذكرنى ، فحكى له عن شوق أمه له فقال الولد : رحيلنا يتعذر فى العلن ؛ فصنع التاجر صندوقا وضعه به وحَمَّل جَمّازة به وعجل بها حتى فارق الّروم واتصل بديار العراق وطوى مراحل الفراق إلى منزل الوفاق ؛ فلما بلغ دار ملك الشاه ألبسه كسوة فاخرة ، فلما وقع نظر الشاه على صباحته وفصاحته أعزه كثيرا وكانت أمه تشاهده عن بعد وتستريح لمجرد النظر إليه :

وليس لنا من اللذات إلا أمانيها ورؤيتها نصيب

لما فكرنا كثيرا فى اجتلاء طلعتك قنعنا بالنظر إليك من بعيد

كانت تنظر إليه من بعد ويضطرب قلبها بباطنها فلربما لا تسنح فرصة تحادث فيها عينها وقنديلها أو تشتم من جنة عذاره ريحانها ، وفى يوم من الأيام خرج الملك إلى الاصطياد ، وخلى الحرم من إزعاج الأغيار واستولى ضرام الشوق على قلب الأم المضار فاستدعت الأم ولدها فى سانحة إلى سراى الحريم ، وفرحت قلبها بنسيم قربه والترحيم وروحت روحها من شراب وصله ؛ فاطلع حاجب على ما جرى وقال : حرم الملك مركز الأمانة ورؤيتى وعدم مقالتى من الخيانة .

فلما عاد الملك من القنص أجرى الحاجب ما حدث على لسانه وشرح ما وقع فى بيانه ؛ فتغير قلب الملك وتأثر وتوغر

صدره ، وقـال : إن هذه المراة أدخلتنى جـوال افتـعالهـا وبالمكر والغدر أتت بمطلوبها ومحبوبها من الروم :

دع ذكـرهـن فـمـالهن وفـاء ريح الصبا و عـهودهن سواء

يكسـرن قلبك ثم لا يجبـرنه ومـن الوفـاء فؤادهن خلاء

ثم دخل حجرة ابنة القيصر ، مـغصص الفؤاد مجروح الصدر ، ظهرت آثار التـغيـر فى باطنه وتغيرت سـمات وجـهه من حمـية رجوليته ؛ فلما تفرست زوجته آثار غضبه وتحسست أمارات كربه علمت بالقرائن أن مـا حصل وصل سمع السلطـان وسمع كيفـية الأحوال بعد تخليط كـبير وقيل وقال ، وقـالت المرأة : ماذا جد على الملك حتى صار على غيـر عادته ؟ فقال : هذا الغلام الذى جلبتـه من الروم سمـعت أنه جرى بينكمـا اليوم مقـالات محـبة ومناجـاة سلوة ، ألا تستـحين من أنك تجـالسين غلامـا وتؤثرين طغاما ، فقالت : حذار أن يجـول هذا المعنى بخاطرك ، فضمير الملوك أعز من أن يعلق بـه لهذا السبب غـبار ، إن اللذة العظمى للسلطنة فى تنفيذ الأوامر والـنواهى وإمضاء الحكم النهائى وليس على الخدم والحشم إلا تحمل أثقالها ، فإن تصور لك من أى جهة خيـال أو تغير فيك طبع وحـال سارعت بفصل الأعناق بسـيفك البتار وأخليت باطنك من الأكـدار ، فإن صدق ظنك فى غلامك فَمُرْهُم بـإنضاء لباس لحيتـه من جيد وجوده وإن صـدر منى مثل هذه الخيانة فـأشر عليهم بفعل مـا يقتضيه رأيك الـعالى ؛ فسكن

بهذه الكلمات التـهاب غضب الملك وركن عاصف غضـبه وأخذ يتمعن فى جمال زوجته ولـم يكن وداد فؤاده يفتى بقطف مثل هذه الوردة من روضة الوصـال وموكل عشقـه لم يكن يسمح بخطف مثل هذا السرور من بستان الدلال . سرو هى البدر عليها طالع ، ووردةٌ هى الشمس لها تابـع ؛ فأظهر العداوة التى كانت مـستورة بباطنه وجعل الغلام هدف سهم غضبه وقال إن سهام الانتقام التى أخرجـها من جعـبة الأيام لن يكون هدفـها غيـر هذا الغلام لأن معشوقـه يليق به فرجة النظر وليس إمضاء القهـر ، فاستدعى فى الحال من له طالع المريخ وطلعة زحل ومثال الرأس وصورة الذنب . شخص كان عقابا لشؤم الأفـلاك وعقوبة لسم العوالم وسلّم قمر ذاك الزمان والأعجوبة الفـريدة لذاك الأوان ، وكان تذرج الروضة الفرد وبلبل بدائع العهد ودوحة الروضة القيصرية وزهرة الأشجار الرومية ، إلى يد مالك جهنم وزبانيته عالم العقوبة والألم وقال : الليلة لابد أن يصير نهار عمـره ليلا والصبح لابد أن يكون لنهايته أولا ؛ فأتى الحـاجب بهذا الحبيب الفـريد إلى منزله وأراد بسيف العـقاب أن يفـصل عنق هذا السـر الغض فهطل سـحاب الحـزن الناصب من عين الحـاجب وأنارت شمس رأفـته من عين نـقمـته وأنزل اللطف الإلهى نظرة إلى قلبه المتحجر وهتف به : ضع هذا التذرج الملون من منقـار النقار وأزل مخلـب الغضب عن جناحى الطلب له ولا تقطف الغـصن الرقـيق للورد فى شتـاء المحنة لأن مشـاطة الربيع لأجله تنتظر ، ولا تلق ورقة البنفـسج اللطيف إلى يد الثلج ؛ لأن الصنع الكلى له مصور :

لا تخطئ فى حق الرجل إذ تراه وحيـدا

فوراءه ينتظر جيش كثيف من الفرسان

لا تنظر إلى القلب وهو بشكله الصنبورى بل انظر إلى معانيه العزيزة ولا ترد المسك إلى حقارة الجلد والنافجة بل انظر إلى قيمته الغالية ، وظل الحاجب يقرأ فى دفتر جماله طوال الليل ويتلو آيات الإمارة من صحيفة جبينه فرأى نور المجد يتلألأ من جماله وعاين آثار الملكية تتلمع من وجهه واعتداله ، فقال له الحاجب : أيها الصبى ألم تعلم أن حرم الملوك حريم الأمانة لا جحيم الخيانة ؟ ألم تدر أن الأرض المزروعة بشوك الخيانة يحدثونها بضرب الفأس والمعول لا بالمراعاة والتحمل ؟ فقال الصبى : اعلم أننى فرع من شجرة بستان سلطنة الروم ولست شوكة من ملاحة الخيانة واللوم ، وكانت أمى تستحى بحكم دعة طبيعتها من الملك أن تقول له : لى ولد بلغ هذا الحد وسرو علا هذا القد، وكانت تستر حقيقتى وتكسر قلبها خشية أن ينفر منها طبع الملك أو يضجر بها قلبه ، لم تعلم أنه لا يمكن إخفاء المسك والعشق ، لا يطول الأمر بالورد فى أصيصه ولا يستريح العريس ساعات فى نصبته بدون عروسه ، كانت أمى تود بتكلف منها أن تخفى شمس عشقى ولم تعلم أنه لا يمكن طلى الشمس بالطين ؛ فلما رأتنى بذاك اليوم تحرك قلبها بحب الأمومة فاحتضنتنى لغاية الاشتياق وقوة غصة الفراق فصارت تلك الحالة سبب هذه الآفة وتلك الحادثة سبب هذه البلية ؛ فلما سمع الحاجب هذا البيان

اندفع بقلبه الحب والحنان وتعجب من حوادث العالم واضطرار أولاد آدم فكل إنسان يلعب فى مضيق حسرة بنرد حيرة، وكل صاحب واقعة له فى بيت الأحزان عالم من الهم المكبوت وقاسم من الغم المخفوت ، وقال لنفسه : كم من المحنات أصاب قلب أمه حتّى هذه الليلة، وكم من الحسرات جرح صدرها حتى هذه الوهلة ، إن الولد الذى ينتزع من صدر أمه لقتله أى مأتم يثار فى قلب أمه بسببه وقال : إن المصلحة هى أن أخفى هذا الولد فى وثاق بإكرام و إنعام فلا يمكن مَحْلُ مثل هذه الزهرة ولا يمكن فصل مثل هذا الغصن ، لعل يوما يظهر هذا السر ويجهر هذا المستور ، وليس لى من قتله غير الهم المقيم بل إن لى من حياته التنعم العظيم ؛ فأكثر من إكرام الولد وأقره فى حجرة مستورة ، وفى اليوم التالى قال للملك : قمت بما أمرت به وأزلت من صدر الشاه الغبار والنقار :

كمثل القمر والشمس الدائرين فى الفلك　　　امتثل لأمرك فى كل معترك

فزال هذا الانكسار عن قلب الملك وزايل هذا الغبار صدره لكن ثقته من بعد زالت عن ابنة القيصر فلم يعد يعيش معها على مذاق السعادة ولم يعد لورد عشرتها ما كان له من طراوة ولا لوقع مقالتها ما كان له من حلاوة :

ذلك القلب الذى كان خزينة وفائنا　　　وكان جماع أمره طلب رضائنا

صار غريبا عنا حتى إنه لا يظن أحد　　　أنه كان أليفنا فى سائر عمرنا

وكانت ابنة القيصر فى حـزن عظيم وكرب مقيم لقتل ولدها فقـد صار در صدف حـبها فى التـراب والدماء ، وراحة روحـها وقلبها فى جبّ الهلاك والفناء، وكـانت ترى فضلا عن هذه الحسرة تغيـر الشاه فأحالت كـثرة الغموم وتواتر الهـموم احمرار خـديها اصفـراراً وحرارة أنفاسـها برودة وابتسارا وصـار أرجوان وجهـها معصفرا وورد عارضها مزعفرا :

فى كل لحظة أنا من محنة وغم فى حزن وقـلاء كأنى ولدت من أجل البلاء

وكان بقصر الملك عجوز طاعن عرفت العمر الطويل وعركت حوادث الزمن الوبيل فـقالت يوما لهذه الأميـرة : ماذا حدث لك فأنا أراك على الدوام حـزينة مهمـومة ومتحـيرة ومتـفكرة ؟ وجه عارضك فى معرضِ الزوال وحسن خديك على شرف الانتقال ، فشـرحت الأميرة غُـصة الزمان وقـصة الحدثان للعـجوز : ولدى ذهب وزوجى غـضب وليس لألم فراق ولدى دواء ولا لإعـراض الشاه انتهاء ؛ فقالت العجوز : لا تبتئسى فإنى بحل هذا المشكل عارفـة وطريق هذا المنزل آلفة وسـوف أتحايل حـتى يرضى عليك الملك ويفنى كل غضـبه من قلبه ؛ فقالت يا أمـى لو قدمت لهذا الألم عـلاجا ولهـذه الحادثة افـتـراجا لأمـلأن جيـوبك بالذهب ولأغنين افتقارك بالمال والمنال ، وتبقين بقـية عمرك فى ظل رأفتى وتعيشين آخر شيخوخـتك فى روض نعمتي، وقال عليه السلام : (إن حسن العهد من الإيمان) .

واهتبلت العجـوز فرصة وجدت فيـها الملك مختليـا فأخذت بلطائف الحيل تستفسر عن الواقعـة وتستخبر عن الحادثة وقالت : ماذا جعل الملك يظـل دائما فى قبضتـه التفكر وسلم عنانه إلى يد التحير ؟ كان ظاهرك من قبل أنوار البشاشة وباطنك آثار الهشاشة والآن أرى غبار حزنك عـلق بأزهار حسنك وتراب فَكرتك تجمع على ورد ملاحـتك ؟ فرد الشـاه : يا أمى لدى هم لا مناص من كتمانه وسر لافوت من إبطانه، اعلمى أنى جلبت غلاما من الروم واتهمـوا هذه المرأة به فقـتلته ولا يطاوعنى قلبـى أن أقتل المرأة ، ويحـدونى أمل فى أن أطلع على حـقيـقة هذه المرأة وأجـمع هذا الخاطر المتفرق ؛ فقـالت العجوز : اعلم أن لدى تعويذة وحديدة من أحراز الرسـول سليمان عليـه السلام بالخط السـريانى مكتوبة بقلم الجان على بـياض من الديباج ، فـإذا نامت امرأتك ضعـها على صدرها تُفْضِ إليك فى الحال بما فـعلته بلا زيادة ولا نقصان ؛ فاستعجب الملك من هذا الطلسم واستغرب لهذه التعويذة ، وقال : يجـوز أن نعلم مضـمون هذا الحـال ونفهم مكنون هذا المـقال ؛ وأعطت العجـوز الملك فى وقت المنام التعويذة والحـديدة قائلة : حين تنام امرأتك ضع هـذه التعويذة على صـدرها وهذه الحديدة تحت وسادتهـا وحذار أن يغلبك النوم ، وأنصت إلى مـا تقول ، ثم قدمت إلى الأميرة وقالت : احتلت حيلة واصطنعت وسيلة ، الليلة حين يرقد الملك عليـك أن تتظاهرى بالنوم وحين يضع ورقة على صـدرك قصى كل مـا جرى من أحوالـك فإن الشاه بـحبك

متعلقا وباطـنه بعشقك موافقا فسـوف يشتم ورد وصالك ويتنسم نسيم رضاك ويكون فى كـيسه أسرار عشقه نقـد وعلى عمامة آثار حبه عقد ويسعد فى الحال ، ولو كان يجزم الفراق ويعزم الطلاق فإن لنهـار الوصال ليـلاً ولشخص المودة اضـمحـلالاً ، يبرأ ذيل أحوالك من غبـار هذه التهمة ويُدرأ عن قالبك الرقـيق كسوة هذه الآفة؛ لأن الملل والخجل يشوى القلب بناره ويجـرى العين فيضانا بمائه ؛ فوضعت المرأة على وفق إشارة العجوز جنبها على سريرها وفتحت عينيها إلى قضـائها وقدرها لكى تنظر ماذا يخرجه الفلك من أستاره :

من كثر ما أعطانيه الدهر من شراب المرارة

دمى وقلبى وروحى لهمّ الأيام الدوارة

ولما حانـت الساعة وضع المـلك التعـويذة على صدرها غـير المستريح والحديدة أسفل وسادة رأسها المليح ؛ فأخذت المرأة تقص هموم الأيـام وأحزان الأعوام مما يمـوج به روحها مـن حزن وآلام وبينت ما جرى لهـا من أجوال فى سائر عهـدها وما جرى به من قلم القضاء على ورق قلبها من إثبـات حزنها وسعدها ، قالت : كان لى من زوجى السابق ولد كأنه مائة ألف حسناء، وكان وجوده لقلبى مفـتاح كل الفتوح وشـهوده لروحى مصبـاح كل صبوح ، كان غصن روض الدولة وفرع شجر السـعادة ، كان بستان وجهه متريض نظري، وكان ياسمين عذاره متنزه بصرى كالقمر السماوى فى نسبه الخسروانى :

كان راحة جناني وسرو جنتي　　　وكانت رؤية وجهه من حولي روضتي

فلما زوجني أبي بهذا الشاه ظللت بحكم نقصان العقل أخفى قصة ولدى وفى فراقه أمضى عمرى فى محنتى ، فلما وصل إلى الغاية آلامٍ فراقه وهوى صبرى باحتراقه ومضى قمر سكونى إلى محاقه جئت به فى النهاية بالحيلة من بلاد الروم لأجعله مرهما لقلبى المظلوم، وكنت أسلى قلبى بالنظر المجرد إليه وأُصفى كربى بالمرأى المفرد إليه ، وحدث أن وجدته يوما منفردا كما يجد العطشان الماء الزلال أو العاشق ليل الوصال فضممته إلى صدرى بسبب شوقى وعشقى وقلة صبرى ، شممت عنبر شعره وقبلت عبهر بصره ، فوصل ما حصل بطريق التهمة إلى مسامع الشاه ، ففصل عنق ولدى الوحيد :

عجبت لصبرى بعده وهو ميت　　　وكنت امرءاً أبكى دوما وهو غائب

على أنها الأيام قد صرن كلها　　　عجائب حتى ليس فيها عجائب

ليت عينى حين بقت من النظرة مهجورة غدت بالعبرة مأمورة حتى يكون لقلبى الممتليء عن طريق العين براح ولحجرة مأتمى بشرح الهم مصباح :

من كان بمكنته حكاية همه　　　صار بمكنته إزالة غمه بمقالته

فانظر إلى هذه الوردة العجيبة التى تفتحت لنا

عجزت عن إبداء لونها وإخفاء ريحها

وليت الشاه وافق حبى ورافق قربى حين ضاع ولدى العزيز ؛ فلما سمع الشاه هذه الكلمات راح يقبل وجهها وشعرها ويذرف العبرات من مآقيه وقال : يا أصل الروح وأس الرّوح أى خطأ اقترفته ؟ ألصقت بنفسك تهمة وأزهقت روح ولدك ، واستدعى فى الحال حاجبه ، وقال ذاك الطفل الوسيم والصبى القسيم الذى قتلت كان ولد أنيستى وكبد جميلتى فأين مقبرته حتى أزور تربة ذاك الشهيد وأعمر روضة ذاك السعيد ؟ فقبل الحاجب أرض الطاعة وقال : أدام الله الملك أبشر فإن ذاك الولد لا يزال بمهد الحياة وذاك القمر لا يزال بعهد سعادة الأناة جلس فى ضمان الأمان فى فرشة الروض والبستان ، مجد السيادة من جبينه لائح ونور السعادة فى خده واضح ، لما أمرنى الشاه بقتله وددت المساعدة والمبادرة لهلكه لكن أمير الروم قال : لا تعجلن بقتلى فأنا شخص من عرق النسب القيصرى وثمر من شجر روضة الحسب الكسروى وأمى وهى ملكة هذا الملك استحت أن تظهر سرى وتجهر بأمرى لعل الحظ يساعدنا يوما والبخت يواعدنا عهدا ويردفنى السعد الرحمانى ويألفنى الفضل الربانى فتنهى أمى شأنى إلى السمع الأعلى وتنجى عز نسبى من هذا الذل وتحيى كمال حسبى فى هذا العالم . استئصال الشجر سهل لكن غرسه وإبلاغه الكمال صعب ؛ فأمر الملك بإحضار الولد ؛ فلما طلعت شمس محياه ولمعت هالة سيماه ورأت الأم وجه ولدها تحولت عن المسيحية شكرا لهذه النعمة وتولت عن ابنها مسوح الرهبانية

حمـدا لهذه المأثرة ، وخلع على الحـاجب رفيع الخلع وزادوا فى اصطناعاته وفاضوا فى إقطاعاته .

وإذ ذاك قـال بختـيار : أيهـا الملك ، فى هذه القصـة لأهل العقل فـوائد ولأرباب الألباب مـوائد ، والفائدة الأعظم والـنكتة الأهم هى توجب التأنى فى قتل الحى ولو كـان ذاك الحاجب قتل الولد لاستـحق الغرامة والملامـة وما تحقق له الخلعـة والكرامة إذا عرف الحق من الباطل وانكشف سـر الأم وولدها ؛ فلا تعجلن أيها الملك بحكم اقتضاء العقل وراتضـاء العدل بقتلى فسوف تظهر فى العاقبة لرأيكم العالى براءة ساحتى وتجهـر نقية من الخيانة سمعتى ؛ فلما سمع الملك هذه الحكاية قال : توقفـوا اليوم حتى تتعرفوا فى الغد وتتمحصوا ما جدً .

كم من التحف يأتى بها الزمان ما دار

من الحادثات العجائب ونوائبه الكبار

ولما طالع اليوم التاسع جيش شعاع الشمس فى الميدان ، وبلغ الدور التاسع تحرك الليل والنهار فى الزمان قال الوزير التاسع : كل حامل تلد فى الشهر التاسع ولعل الأمر ينحسم اليوم فأتى الصباح إلى حضـرة الملك وأشعل مصـباح الفصـاحة فى مشكاة البـلاغة واشتغل بإقامة الدعاء ونظم الثناء :

بقـيت مدى الدنيـا وملكك راسخ وطودك ممدود وبابك عـامر

وهنئت أيامـا تـوالت سـعـودهـا كما يتوالى فى العقود الجواهر

وحرض الملك على قتل بختيار وفوض مصلحة الملك إلى الهلك فأمر الشاه بإخراج بختيار من السجن وقال : الحيوانات المؤذيات المضرات لابد من قتلها والحسك والشوك التى يشتبك بذيول الأحرار عند مزار الأزهار لابد من فصلها والجزاء للخيانة لازم والعقاب للزلة ملائم فاذهبوا وانصبوا المقصلة وحلوا المشكلة .

فقبل بختيار الأرض وقال : أبقى الله الملك صوروا هذه الخيانة منى على صحيفة رؤيتكم العالية ، وقرروا صنعتى أنا الضعيف فى حضرتكم الغالية ، ومع هذا فلا يجدر بقول الحساد إلقاء سفينة حلمى فى غرق التعجيل ولا يحق بتخريص أصحاب الأحقاد إنهاء سكينة علمى فى يد التخبيل ، فالملك (داد بين) حين سمع إفساد الحساد رأى الأضرار فى مستقبل الأيام ؛ فقال الملك : احك لى هذه القصة وارو لى هذه الحكاية .

الباب التاسع

قصة الشاه (داد بين) والحوادث التى تولدت من سماع قول الحساد والنوائب التى أنزلتها دورة الأيام علي رأسه

قال بختيار : أدام الله السلطان المعطاء وملك الأوان ذا العطاء فى عمر معمور بالعظمة المؤبدة وحياة مزينة بالسعادة المخلدة . كان فى بلاد طبرستان ملك من جملة ملوك الزمان صيت شجاعته فى العالم مشهور وذكر مبارزته فى الأفواه مذكور ، وكان له وزيران اسم الأول (كامكار) والثانى (كاردار) وكان لكامكار الوزير هذا ابنة لم يكن لها فى الجن والإنس مشاكل ولا فى حسنها ولطفها مماثل ، كانت حورية فى هيأة آدمية وروحا فى صورة بشرية ، ومع كل هذا كانت فى ليلها ونهارها فى محراب الطاعة وفى كل أوقاتها على سجادة العبادة ، وكان (كاردار) يوما فى قصر (كامكار) ضيفا ، فى ضيافة كلها ظرافة ومجلس كله لطافة ، كان يظهر الانبساط على بساطه ويبدى النشاط فى مجلس متعته ؛ فلما انبعث من الشراب فى مزاج كاردار حرارة ونشأت من المتعة فى مذاقه حلاوة خرج ساعة إلى البستان لكى يسكن بخار الشراب ويركن رياح الراح وأخذ يطوف حول البستان ،

فرأى من البعد حجرة كانت تبدو موشاة ولاقى روضة كانت تلمع محلاة ؛ فمر بهذا الطرف ونظـر إلى تلك الحجرة فرأى فتاة ذات جمال قامـت للصلاة وتوجهت بالطاعة إلى محراب العـبادة كأن الشمس حلت بالمحراب أو كـأن الزهرة بدلت ضرب الأغانى إلى الخـشوع الربانى ، حـتى غـدا كاردار بمائة ألف قلب عـاشق ذاك الجمال وصيد ذاك الدلال :

حـدث لى مـن العـشق أمـر وأى أمـر

وغرس الزمان بقلبى شوكا وأى شوك

وقلبى الذى كنت أخفيه عن كل امرئ

سقط الآن بيد حبيب وأى حبيب

وفجأة قفل مسافر الشوق على روحه داره وجعل بازى العشق من قلبه وكـره ،هبط طير العشق من هواء نظره وربت نبـتة الحب من أرض محبته ، وفى أثناء تحيره وتفكره عركت القوة الروحانية النفس الشيطانية وحركت أنـوار العقل الآداب الإنسانية فنهض فى الحال وعاد إلى مجلس الشراب ؛ فلما تجرع بضعة أقداح جاشت فى جنانه النفس الأمـارة وارتمى فى أحضانه طفل الخـيال فنهض وأثر الشراب فى رأسه وانقلب بالعشق قلبـه عقبه على رأسه وأتى الملك ووصف حسن تلك الربيـبة وكشف جمال تـلك المحبوبة . ومن كـثرة أن منح شـرح طرتها وخـالها الريش والأجنحـة ومن فيض أوصافـه وتشبيهاته قدها الـصنوبرى وخدها الأسيل الزهرى خطا الشـاه فى طريق العشق كـما خطا (وامق) وتنفس أنـفاس الصدق كالصبح الصادق ، وارتهن التمنى قلبه وأسر الجنون لُبّه .

نقرت عنقاء العشق بمنقارها روحه وجنانه ، وعسعس الفلك ذى الهلاك فى جسده وجثمانه ودق حادى الحسن جرس الهوس فى نفسه ودحرج مقامر المراد زهر الاستعداد فى حسه :

كانت روحى وقلبى فى رقة وصدرى فى نزه حين ولج بغتة همّ العشق والله

وأخذ الشاه يستخبر فى كل لحظة عن حسنها ويستفسر فى كل برهة عن لطفها فكان كاردار يزيده وصفا لجمالها ودلالها :

إن الملك الذى يقود مُلكا إذا مال رشده زال مجده

فخطب الملك ابنة كامكار بواسطة كاردار ورغبه بوعوده الجميلة وتحسين أحواله فى مستقبله وحاله وقال : هذه المصاهرة سبب زيادة مراتبك وهذا الاتفاق أساس ارتفاع مناقبك ؛ فقبل كامكار الأرض وقال : العبد وما فى يده لمولاه ، والملك مالك رقاب العباد وملك الأقاليم والبلاد ومن الفرق حتى القدم طوق عبوديته ومن اللحم حتى الوضم آثار نعمته وتربيته لكن بنتى مشغولة بالعبادة بالليل والنهار ليس بها للّذات الدنيوية نظر والتفات ولا لمرادات هذه الحياة توجه ومراعاة ، تقوم الليل وتصوم النهار ، وسأذهب وأبلغها بشارة خطبة السلطان فإن حصل رضاها زال الفكر عن بال السلطان .

وتوجه إذ ذك كامكار الوزير إلى ابنته وشرح ما جرى ، وقال : ابنتى العزيزة صلة الملك سبب السعادة وأساس السيادة وهى فال خرج من كراسة الإقبال وسعد انفرج من حسن الطالع .

فقـالت الابنة : يا أبتى لـم يبق لى من لذة الطاعـة فراغ للشـهوة فارفق بقلبى ولا تكلفنى ما لا يطاق ؛ فـآب إلى حضرة السلطان الوزير كامكار يجلله القلق وعدم القرار وشـرح له أحوال عبادتها وبكاءها وخشيـتها ، وكان العشق اسـتولى على لبه والحب تولى أمر قلبه ، كانت نفسه الشـهوانية ترسم هندسة الوصال ، وكانت شعوذته الشيطانيـة تنقش وسوسة الخيال فغلبت فـيه قوة الغضب ومالت به شـهوة الإمارة ، فـخاطب كامكار الوزير برسـالة يقول فيها : قل لابنتك أن تؤثر السـلامة وتودع الملامة وإلا وقعت فى شرك الهلك وصارت فضيحة الأنام فى الختام ؛ فارتعد الوزير من شدة هذا الكلام وقال لابنته : إرضِ بما أمر فسلوك مخالفة الملوك والإحجام عـن أمانى الحكام سبب النائبة والبـلاء وموجب النازلة والشقـاء . حكمة : إياكم والملوك فـإنهم يستعظمـون رد الجواب ويستـحقرون ضـرب الرقاب ؛ فقـالت الابنة : يا أبتى من أدرك حلاوة القرب الإلهى استقل فراغه الملاهى والقلب الذى عرف لذة العبـادة أنَّى له أن يوافق طبيـعة ذى السيـادة ؟ فقـال أبوها : وما التدبير ؟ فـقالت : الهرب هو الحل فلغضب الملوك حـدة الحسام ولسخط الولاة انتقـام الضرغام والهروب من حدة الحسـام وانتقام الضرغام واجب الدين والعقل ولازم الشـرع والعدل ، وفى الخبر : الفـرار مما لا يطاق من سنن المرسـلين ، والصـلاح هو أن نخلى الملك والمال ونتـجه للرحلة والانـتقـال ، وفى المثل (السلطان لا جار له والبحر لا صديق له) .

بما أننى عــاجــز عن مــجـابهــة ظـلمك

فليس عجيبا أن يقول عدوى قد فررت من جورك

ولما أحاط سـرادق الليل الغاسق بحوالى العالم وطلع الـقمر المزين للأقطار من الفلـك المبلى للأعمـار وطوى العـالم البسـاط الأسود للعاشقين ونظمت الدنيـا فحم الليل فى قلادة الكواكب ، صحح الوزير وابنتـه العزيمة إلى الهزيمة وأنـضوا وأمضوا أسـباب الذهاب ، وفى طلعة النهار حين لم يسمع الملك عـنهما خبرا ولم ير أثرا ركب أيضا من الصـباح جواد الظلـم البواح وتنكب طريق المروة والفتوة وظل يعدو فى أثرهما حـتى أدركهما فى منزل وطير فى الحال رمـحه الكبيـر إلى رأس الوزير فودع كامكار حـياته فى الحال وتسمع نداء الأجل، ثم أدخل البنت بالجبـر فى حبالة القهر وقيدها بقيد النكاح بالتغلب والإلحاح :

لا يحسن الوصل إذا كان على غير هوى الموصول

ولا يكون العاشق معشوقا بحق إذا كان غير مقبول

ولما انقضت مدة طرأ للشاه سفر لازم وجدله مهم كلى لازب ففوض ترتيب الملك وتمهيد السياسة للوزير كاردار وقال : عليك أن تنظم فى مدة غيـبتى ترتيب مصالح الملك وتعدم مـواد الفساد من ساحـة البلاد حتى تثـبت وقت رجوعى أقـلام رأيك الصائب آيات الثبات على بياض السلطة وينبت أيام عودتى من آثار سعيك الجميع نبات الحيـاة فى رياض الدولة ؛ فقبل كاردار أرض الطاعة والولاء وتوجه المـلك إلى سفر الصـحراء ، وقـصد كـاردار يوما

مهمـة على سطح قصر الملك فوقع بصره بغـتة على إيوان سراى الحرم فرأى بنت كامكار كتصـوير مانى جالسة على تخت الأمانى وعقدت يد الحسن شقائق وجهها باقة باقة :

يا من لك من ورد الحسن باقـات على وجهك

ما أكـثر أن ضربوا كـفًا بكف بسـبب وجهك

ورام كاردار أن يفنى فى حسنها وينعدم فى لطفها ودق جنون العشق حلقة باب قلبه قائلا : أنا قادم وعـقدت قوة الصبر رحلها من لبه قائلة :إنى راحلة ؛ فهـبط فى الحال من السقف بقلب كله جنون وصدر كلـه مأفون حـمل باقات حزن مـن آلام قلبه وخط قبـالات عبوديتـه من انخلاب لبه ؛ فـخاطب الابنة : مع أن فى مذهب العشق ليس لقتل العشاق قـصاص وفى شريعة المحبة ليس لاسترقاق العشـاق خلاص ، مع كل هذا يجب سماع آلام قلوب المحبين والإشفاق على ألباب الوالهين المدنفين ، مضت مدة مديدة وأنا واله بوصالك وانقضت فترة طويلة وأنا بقيد جمالك ، كانت النجوم فى السـماء تترحم على سهرى وكـانت الطيور فى المروج تتحرق قلبا على ضجرى ، ألقى خيال شعرك المضفر بى فى الهم وأغرقنى تمنى وجهك المنضر فى عبراتى التى كاليم ؛ فلما سمعت الابنة هذه الرسالة طردت عنها المـرأة التى قدمت بالسلام والكلام وقالت : قـولى لكاردار يجب أن تحضر أمـينا عـلى حرم الملك لا أن تنظر إليه بنظر الخيانة . والعجب من إنك نسيت صداقة أبى

في سالف الأيام ودفنت رأسك في الرمال كما تفعل النعام :

الآن وقد انحنى ظهرك بأثقال العمر فتنبّه فقد انفجر أخيرا السحر

كان مـاء العشق قـد أغرق كـاردار بلجاته فلم يعـد به بعنان العقل تمسك ولا بالوعظ والرشد تبرك ؛ فـأرسل إليها رسالة ثانية وبدل اللطف إلى العنف وقـال إن جعلت على مرادى حـجرا ولا لتمـاسى زجرا فلسـوف أغضب عليـك الملك الشاه وأحـيرك فى متـاهات الهلك ؛ فقالت الابنة : أنا مـن سنوات فى الطاعة ومن فتـرات فى الخشاعة ويقـبح ارتكاب الزنا لدى أهل الدين، والزنا والغنى لا يجتـمعان إلا أن فـيك العقل قـد أصيب بالخلل أو أن أملك يقصـد أجلك فقد سلمت زمـامك إلى يد إبليس وأودعت عنان الخذلان بقبضة الشيطان ورب أمنية تجنى المنية ، وكان بقصر الملك طبـاخ مخنث يعـد الأطعمـة ويمد بالأطبخـة العذبة فـفكر كاردار أن يتهم تلك الابنة بذاك المخنث ، ويحطم شرف زهدها ، فلما تواترت أخـبار رجوع الملك وظهرت مـقدمات موكـبه ، دبر كاردار الوزير استقباله ورتب اقتباس إقباله ؛ فلما وصل إلى الملك قبل أرض الطاعة ، وكان الشاه يسأله عـن كل مهم ويستفسر منه عن كل لازم إلى أن سأله ضـمن حديثه على أى نسق كـان حال الحـرم وعلى أى نمط كـان ترتيب الوظائف ؟ فـبدأ كـاردار بدافع الجهالة والضلالة تلاعبه المنكوس فى خانات الطالع المنحوس وقال : أشكو لك من أهل الحرم شكوى ليس للسان إفـاقة أن يطريها ولا

للقلب طاقة أن يخفـيها (متحـير بين الباب والدار) وكنت أنتظر قدوم الشاه ؛ فلما سمع الشـاه هذه الكلمات ارتعدت فرائصه من فرط حمـيته وقال : قل مـا حدث من أحوال وما جـرى من قيل وقال ؛ فقـال : أمرنى الشاه أن أسمع مـا بسراية الحرم فسـمعت بالصدفـة حديثا ، فـصعدت إلى سطح السـراية ليلة فرأيت بنت كامكار قد جلست مع الطباخ المخنث فى غاية الجراءة، وأخذ هذا الطباخ يعاتبها بقوله : حسبك لى من طرف اللسان أما عشقى لك فمن أعماق الجنان ، وظلا يتحادثان بمثل هذا الحديث حتى ناما ؛ فاضطرب الشـاه من شدة غصـته وغضب من غـاية حدته ، ولما وصل سراية الحرم أمر فضرب عنق المخنث الطباخ ولم يخط قدما فى دار الحريم حـتى استل سـيفـه الزحلى الطبع الألماسى الوضع وقال أيتها الذليلة الشقية آثرت ناقصا على تاجى وعرشى وأدخلت مخنثا إلى وسـادتى وفرشى ؟ وا أسفاه على اعـتقادى فى زهدك وطاعتك واعتـمادى على طهارتك وعبادتك ! فـقالت الزوجة : أيها الملك احذر أن ترتكب فـعلا بتخييل الحاسد وتـسويل الفاسد فيـؤنبك عقلك ويغـرمك عدلك . اعلم أن لون هذا الـتزوير لم يخلطه غير كاردار الوزير، وهذا البهتان العظيم لم يرمنى به إلا هذا اللئيـم، واصبر لحظة حـتى أعين لك طهارتى وأبين رجـسه فـقد اتهمت عـائشة الصـديقة رضى الله عنها مع أنـها تشرفت بالخـبر (كلمينى يا حميرا) بالكبيـرة، وقد نسبت إلى مريم الطاهرة الصديقة مع طهارتها التـامة وقوله تعالى فـيها (أحصنت فرجـها) جريمة

الزنا ، كانـت هذه الابنة تتفوه بهـذه الكلمات حين صـرخ فيـها الشاه وقـال : اقطعوا عنق هذه النجـسة التى سوف تـغرر بمكرها طبعى وتفتـر بغدرها رأيى ؛ فقال الحاجب وكان واقـفا بجواره : أيها الملك العظيم يتـشاءم العظماء من قتل النسـاء ويتلاوم الكبراء بإهلاك ناقصات العقل، وإذا كان لا مناص من قتلها فمرهم بربطها بناقة ودفعها إلى بيداء بلا انتهاء فهذا عذاب آلم من القتل وعقاب أعظم من طعن النصل ؛ فـأمر الملك بربطهـا بناقة وإطلاقـها فى الصحراء الواسعة الأرجاء .

وحدث أن وصلت الناقة إلى عين ماء فبركت واحتالت البنت حتى حلت عقـدها ، وما إن نزلت من فوقهـا حتى توجهت إلى قبلة الصـلاة والتهجد ووجـهت قلبها إلى بلاط الأحد الصـمد . كانت تصـوم النهار وإفطارهـا على أوراق النبات ، وكـانت تقوم الليل وانتظارها الفرج من رب الكائنات ، ومن كان لله فالله له :

لا يتـــأوه من ســوء الحـــال إلا العـــاجـــز والضـــال

وحدث أن جفلت بضع نوق من راعى ملك الملوك من صف الإبل وغابت أيامًا عن المرأى فظل يتجول على جمازة حول المفازة حتى وصل بغتة إلى حـافة البئر فرأى حسناء عقدت عـقدة التبتل وجلست وحـيدة فى هـذا الجبل الهـائل ؛ فلمـا أنهت صلاتهـا بالتسليم سبق الراعى إليها بالتـسليم ثم سألها بحكم التعجب هل أنت من بنى الإنسان أم من زمرة الجـان حتى قررت فى مثل هذه

البرية وآثرت العزلة عـن البرية ؟ فقالت : أنا مظلومة ومـحرومة تشردت فى هذه الصحراء وتبددت فى هـذه البيداء، لكن عبادة الله غذاء القلب وطاعة الخالق شفـاء التعب ولدى كلمة الإسلام بمثابة الطعام ، وذكر ذى الجلالة بمنزلة الماء الزلال ؛ فقال راعى الإبل : أيتها الزاهدة اقبلى أخـوتى لك حتى أحملك إلى دار ملك الملوك خشـية أن ترى فى هذه الصحـراء آفة أو تشـاهدى فى هذه المفازة مخافة ؛ فقالت البنت : توكلى على الرحمن وتعبدى للمنان وفى القرآن (ومن يتوكل على الله فهـو حسبه) ؛ فوضع الراعى على حافة البئر ما معه من طعام وأدام وانطلق يبحث عن النوق الضالة ساعة ؛ فلما أشعت بركات هذه المستورة عليه أقبلت النوق الضالة تسعى إليه فتوجه بقلب سعيد إلى بلده البعيد، وكان الملك الأكبر فى الميدان وكرته فى عقفة الصولجان ؛ فلما رأى الراعى سأله هل وجدت النوق ؟ فقال وجدت جـميع النياق بعظمة السلطان وبركة زاهدة الزمان ؛ فسـأله السلطان : من هذه الزاهدة فى هذه البادية ومن العابدة فى هذه المفازة ؟ فـشرح الراعى صفة جمـالها وهيأة كمالها وكيفية طاعتهـا وعبادتها، وقال روحانية من الصوامع الفلكية وآدمية فى الصورة الملكية ؛ فتـوجه السلطان فى الحال على سبيل الاصطياد إلى تلك الوهاد والنجاد ومنها مع جماعة من العبيد إلى حيث الصخور الجلاميد ، وبعد أن قطعوا منازل ثلاثة وصلوا إلى تلك البئر فـرأى السلطان مستورة قد سـجدت وسكنت فى تضرع

وأدب فى مقام الطلب ؛ فلما رأى السلطان ذاك التضرع والتخشع ظهرت رقة فى طـبيعته وخـشية فى طينته ؛ فـترجل السلطان فى الحال عن جواده وتنزل عن كلفة السلطنة ، وأنهت البنت صلاتها بالسلام فبادرها السلطان بلســان الانصياع بالسلام ، ثم قال : لم لا تأتين إلى دار ملكى فأسباب الطاعة فى المصر الجامع أكثر ترتيبا وأبواب العبادة فى المشاهد والصـوامع أكثر تهذيبا، وإن وددت أن تزوجينى نفـسك بالنكاح الشرعى حـتى تبدو للطاعـة حلاوة فى قلبى بموافقتك وتظهر للعـبادة طراوة فى صدرى بمرافقتك فلك هذا ؟ فقـالت البنت : أنا مسكينة انقطعت عن الخلق واستـرحت بذكر الحق وأنت ملك الملوك وسلطان الزمان والمكان فاتركنى حتى أدعو لدولتك وأرجو بقاء سلطانك ؛ فلما رأى السلطـان مواظبتها على الطاعة قال لنفسه :

إذا تجاوزت الاستقامة فهذا خسران

وأى رجل هذا الذى به عن النساء نقصان

فنصب خـيمـتـه وانشـغل بالعبـادة ، ولما أظهـرَ لأيام ثلاثة بالإخلاص طاعته وأصدر من صفـاء قلبه عبادته قال للبنت : كان هذا من بركـات أحوالك ومن أنوار أعـمالك فـلابد أن تأتى إلى المدينة حـتى يكون لى أثر من بركـات عبـادتك ونظر من سعـادة طاعتك ؛ فقـالت البنت : اعلم أنى امرأة خط الأعداء علىّ رقم التهـمة وكتبـوا علىّ بقلم الخيانة وأنا بنـت كامكار الوزير والظلم الذى وقع عليه لعله وصل سمع السلطان وأنا الآن فى نكاح (داد

بين) ولعل التهور الذى بطبعه قد بات مشهورا ، وبحكم الإشارة السلطانية سوف آتى إلى المدينة بشرط أن تستدعى الشاه داد بين وكاردار الضال إلى حضرتك وتحضر الاثنين إليك حتى أظهر بالتقرير براءة ذمتى وأغسل عن ذاتى لوث الخيانة وأنقل للكافة بمدد حضرتك حديث طهارتى .

وأمر السلطان فأتى ببنت كامكار فى مهد الرفاهية إلى دار ملك السلطنة وعين جماعة لاستدعاء داد بين وكاردار إلى حضرة الشهريار ، فلما وصلا إلى حضرته قبلا أرض الطاعة وقال ملك الملوك : تعلمان أن دفع الظلم من مهمات الدين والدولة وتمهيد العدل من لوازم العقل والإنسانية وإذا لم يكن للحدود الشرعية إقامة فلن يكون لأحد فى العالم وجه السلامة ، وخلاصة الشريعة إعانة المظلومين ولباب السياسة رعاية المحرومين ، وابنة كامكار الوزير تتظلم من ظلم كاردار الوزير وتقول إنه رقم عليّ برقم الفضيحة بقول كاذب وألقى عليّ بيد التهمة سهم الخذلان من قوس البهتان واليوم هو يوم امتياز الحق عن الباطل وافتراق الصدق عن الخاتل ، جرى هذا البيان على لسان السلطان فصاحت الابنة من وراء خدرها : أستدعى من السلطان وملك الزمان أن يسأل كاردار ماذا رأى منى من جرم وخيانة وزلة ومعصية حتى يصيرنى قبيحة مفضوحة ؟ فقال السلطان أصدق القول (الحق أبلج والباطل لجلج) فمن السهل تمييز الحق عن الباطل ومن الصعب تجويز الخداع فى مجلس الملوك ؛ فقال كاردار

: لم أجد من هذه المستورة قط أى فحش وغلط، ولم أسمع منها صغيرة وكبيرة، وكل ما قلته كان خطأ إنسانيا وتعليما شيطانيا .
فقالت الابنة : الحمد لله فقد زالت ظلمة هذه التهمة والمنة لله فقد بطلت شبهة هذه الخيانة .

فلما علم ملك الملوك بخبث مقالته وقبح معاملته قال للبنت : ماذا تريدين من معاقبة ؟ فقالت : إن الرأى العالى الخسروني فى إمضاء كل حد وتنفيذ كل حق هو الأعلى لكن التمسك بنص القرآن وإشارة الفرقان هو الأولى وقال تعالي: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وكما ربطوني بناقة وشردوني فى الصحراء فمر بربطه بناقة وقذفه بالصحراء حتى لا يسعى من بعد ذاك الطاغوت إلى هتك أستار العورات وتفضيح زمرة المستورات .

ثم قال السلطان : هل تريدين شيئا آخر ؛ فقالت : يعلم ملك البسيطة المكين بأن الشاه داد بين قد دق عنق والدى برمح ثخين ، لم يستح قلبه الأسود من شعره الأبيض ولم يرعو قالب جهله عن آثار فضله والقصاص فى الشرع من المهمات وعصمة الأرواح والأشباح من الواجبات، وإنى أطلب القصاص بنص رب الأرباب « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » ، فأمر السلطان بفصل عنق داد بين برمح رزين :

ثم ارتاح الخلق من ذل حكمه لما أمر العدل بجزاء حكمه

ثم قال : هل تريدين شيئا آخر ؟ فقالت : الحاجب الذى بذل جهدا فى نجاتى وحسن عهدا فى خلاصى مُـر بأن يسطر اسمه فى جريدة الخدم ويوفر عطاؤه من الخزانة الكسروية ؛ فأمر ملك الملوك فألبس الحاجب خلعة رفيعة وأبلغ مرتبة الخواص ودرجة الاختصاص :

الله ليس بغافل عن أمره وكفى بربى ناصرا ووكيلا

لا يملك الإنسان بتا قاطعا لكماله وقضائه تبديلا

ثم قال إذ ذاك بختيار : كان الغرض من هذه القصة أن يعلم السلطان المُعْلم أن ليس فى هذا العالم فعلا بلا مجازاة وعملاً بلا مكافأة، وفى القرآن الكريم (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) فإن ظلم داد بين كامكار الوزير فقد ذاق فى العاقبة نفس الشربة بلا محاباة ، وحاق به نفس الضربة بلا مواساة ، وإذا جرح كاردار قلبه بجرح التهمة وقرح صدرا بقرح المحنة فقد تشرد آخر الأمر فى الصحراء وتفرد أيضا بذاك الابتلاء ، وإذا قرر ذاك الحاجب مصلحة وصور مساهلة صارت فى النهاية السعادة أليف سعده والسيادة رديف سؤدده ، ولما تبرأت تلك البنت من التهم وتطهرت من كبير وصغير الإثم شهرت فى مختتم الأمور طهارتها وذكرت نزاهتها (وما الله بغافل عما تعملون) ألا جعل الله بقاء الملك فى تخليد الملك وتأييد الفلك ، ويقين أن آثار القضاء والقدر الإلهى له فى عوالم الفطرة ومعالم القدرة نفوذ تام

لا يندفع بأى حيلة ولا ينقطع بأى وسـيلة، وإذ أثبت قلم القضاء والقدر لى على صحيفة الطالع البرء القاطع فلابد أن تتحقق برائى بلا تحريض الوزراء وتحـريك الأعداء ، ولكن إذا كـان الفعل من أبنـاء العـالم والعـمـل مـن أولاد آدم فـلا يجب تشديد الاجتـهاد أو تبديد قواعد الاكتساب ؛ فلمـا كانت المستورة مطهرة من تهمة السعاة الواشين فلم يتحرق بنار حسد الحاسدين طهرها ولـم يتفرق بشرار الحاقدين بيدرها ، وبما أنى لست ملطخـا بجريمة فأنا متعلق بيـد أملى بالعروة الـوثقى ومعلق بصـر رجـائى بالقدح المعـلا ، والتماسى من الكرم العميم والخـلق الكريم لحضرة الشاه أن يتأنى فى حكمه؛ لأن شمـس إثبات الحق تبدل ليل التهـمة المفارق إلى صبح النصـفة الصـادق فينقطع أثر سـعاية حسـادى ويطلع النظر المبارك للشاه على صفاء ودادي، ولما وصل رسول الكلام إلى هذا المقام وبلـغت عروس الملاحة مـحمل الفـصاحة أمـر الملك بإيداع بختيار السجن ، فاتجه بختيار إلى دار اعتقاله، وأجرى هذا الشعر على لسان مقاله :

إلام يدمى قلبى ولبى بجفاء الزمان ذى الحـادثات الفظائع

ولو اعتذر لى حظى فرضا فيكف أفعل بعمر فى سجنى هذا ضائع

ولما غدا صباح اليوم العاشـر هو الناشر لشقة الرايات الطالعة وصـاريه الجيش اللابس الـسواد للديجـور من فـضاء الهـواء هو المهجور ، بـلغ عدد مراحل الأيام عشرا وزاد طـول صبر الوزراء

قصرا ، فاجتمع الأعيان وأركان الدولة واتفق العمدان وحجاب الحضرة واتجهت جملتهم إلى البلاط وقالوا : حكم الشاه مادة العفو والعاطفة وثمرة قوى الروحانية الجارفة ، ومالم يكن شخص مهبط النور الإلهى ومطرح شعاع الفضل غير المتناهى ، لا تنعقد فى معدن باطنه جواهر خصال الكمال ولا تترشح ينابيع زلال مكارم الأخلاق من عيون جمال حلمه ومعادن كمال علمه ، لكن حين يتجاوز الحلم حد الاعتدال يغدو سبب فوت السياسة ومادة فقدان الرئاسة ، ومع كل هذه المقدمات تختل أركان الملة وأسس الملك وتتزلزل عمائر الحدود وآيات الشهود وهى موضوع الأصفياء والأنبياء ومشروع وحى الكبرياء ، والعسل هو سبب الشفاء وإن أكثرت من أكله صار سبب الحرارة والداء :

مع أن العسل طيب المذاق لكن إن أكثرت من أكله زاد دمك من تعبه ومشكله

والحلم الذى هو عنوان الإنسانية إذا جاوز المدى صار سبب الجراءة والاعتداء ، وجملة الكفار يسلمون فى حالة البأس لكن لا يحصل لهم من هذا الإيمان غير اليأس ولا ينزل بهم غير نار الجحيم والسعير ، ولا يجب ترك معارف الرجال من أجل زخارف الأطفال ، ولا يجدر لشجرة الرئاسة الاستئصال بترهات الحديث والمقال :

هو الملك لكن السيف جُنَّته والسهم والخوذة والرمح أيضا جنَّته

فلما سمع الشاه هذه الكلمات أمر بشنق بختيار فى التو ، لما وصل الثانى إلى الأول قبل الأرض أمامه وقال : يعلم الملك ذو

الفهم أن لا مفر من القضاء الربانى في عالم التصرف الإنساني، ولا مهرب من التقدير الكلى فى مضايق التدبير الجبلى ولا يجدى الهرب من القضاء ولا السرب من القدر ، وهاكم ملك الحجاز رغم ما احتاطه من تدبير لمنع القضاء والتقدير إلا أنه مخلب شاهين القضاء فى الانتهاء أسره ، ومنقار عقاب التقدير نسره ، وأنا عبد أبديت رضا بقضائى وأبقيت الحذر من القدر :

قضى الله أمرا وجف القلم وفيما قضى ربنا ما ظلم

وإن أصغى الشاه لهذه القصة العجيبة والحكاية الغريبة التى جرى لملك الحجاز رواها عبده ، فقال الملك : قصها عليّ لأسمعها .

الباب العاشر

قصة ملك الحجاز وعجز البشر فى مقابلة القضاء والقدر

قال بختيار : أدام الله ملك العالم فى ملك لا يتبدل وحكم لا يتحول وعيش كالرياض وقت الربيع وحياة فى ظل خالق الخلق البديع . كان ملك بأرض الحجاز له حشم مطيع وحكم رفيع، ولم يكن له ولد فقال لنفسه ليت لى من ولد يرث هذا البلد ، غصة هى أن تنتقل شجرة الملك من الجنة الفالحة للأقارب إلى الأرض المالحة للأجانب وحسرة هى أن يتحول تاج السلطنة من مفرق القريب إلى يد الغريب ، وكان على الدوام يدعو بدعاء زكريا عليه السلام (هب من لدنك ذرية) ، وفى النهاية قرن قنوت دعائه بتوقيع الإيجاب وخزن ولد فى وعاء رحم الإنجاب ، ومنحه التقدير الإلهى واللطف غير المتناهى ولدا فى الجمال بلا عديل وفى الحسن بلا مثيل ، ريحان فى جنة المحبة وأرجوان فى روضة المودة ، وأخذ منجمو الشاه ارتفاع طالع الولادة وعاينوا مواضع السيارات فى بروج الثابتات ، وعلقوا خلاصته سر الأحكام ومقتضى سير الأجرام، وأتوا حضرة ملك وقالوا : يحيق بهذا الولد فى سن السابعة من مخلب أسد خطر فنائه وإن تخلص من

ذاك الخطر فلن يخلص من الملك خوفه من زوال بقائه ؛ فتحير الشاه فى عجائب هذا الطالع وتفكر من مشكلات هذا الواقع وكان يقول لنفسه : هذا طالع طريف وحادث عجيب وأبدى رضاه لقضاه ، وقال الرضا بالقضاء باب الله الأعظم ، كل نار تصير فى العاقبة ترابا وكل ملك يصبح فى النهاية تبابا وملك هذا العالم وماله ظل زائل ودولة هذه الدنيا وجاهها كله باطل ، والولد سبب السرور لكل البرية، لكنه لهذا الملك سبب البلية .
كان ينظر فى وجه ولده ، ويقول : ما أقسى أن يكون لهذا الرطب شوك فى قلبه ولهذا الطرب خمار فى عقبه :

من وصلك لا يجدر سعادة واطمئنان لأنى على يقين منك بالهجران

قال الملك : آفة هذا الولد طعنة أسد حتى انتهاء عامه السابع ويقال سبعة أعوام عمر فى مدة الزمان ودورة الحدثان، فلى أن أكحل عينى فى هذه السنوات بجمال هذا الوليد وأن أحصل منه السرور السعيد إلى أن يظهر فرخ من بيضة الوجود ويبدو شرخ من جدار السدود ؛ فلما أتم الصبى السابعة ودار هذا الفرجار على مراكز الأعمار سبعة أدوار واحتال تحويل هذه الأحوال على بياض الآجال سبعة أعوام أراد الملك طمس نقش القضاء والقدر بيد الحيلة البشرية ودفع التقدير الربانى بالتدبير الإنسانى ؛ فأمر ببناء جب فى قعر جبل وإنشاء بيت فى قعر الجب وأرسل الطفل وقابلته إلى هذا المقر الخفى ، وكان يحمل لهما الطعام فى سائر

الأيام ، وكان الملك يذهب كل أسبوع ويخرج من ذاك البدر ابن الأسبوعين من قعر الجب بدلو عشق القلب فإذا أخرج هذا البدر من قعر ذاك البئر كان يقلب زهر الحب على بساط الشوق ساعة ويلعب مع حريف وصاله نرد العشق ويقول : أيها العدو الحبيب المحيا وقعت بسببك فى كد ونصب وأيها القاتل بلا محاباة قبلت من أجلك بكل بلاء ولغب ما أعجب أمرك وأغرب حبك . راعى غاية الرعاية فى حفظ هذا الولد وحراسته فكان يُربَّى فى مهد حسن العهد وينمى فى قماط كمال الاحتياط ، قال عليه السلام: (الولد مبخلة مجبنة) ويقولون لا يجب أن يعلق غبار بوجه كالأزهار أو تجرى صروف لكسوف لوجه هذا الشمس .

وحدث أن ربض يوما أسد العرين للصيد فى كمين كالريح فى سرعته وكالنار فى حركته فوصل بغتة إلى حافة هذا الجب وسقط فيه (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) فالتقم ساعد الطفل وألقاه أعلى البئر وأراد أن يقفز فلم يتيسر له هذا ، فأراد أن يرقى بحيلة فلم يمكن ذلك . وصارت القابلة فريسة لمخالب الأسد المتضور الضارى وانحدر الطفل إلى السفل من العالى :

طالما لم يعد لى من قتالك مفر فالأولى أن أنهزم وأولى الدبر

ومَرّ راعى إبل بالصدفة بجانب الجب ماضيا إلى بلده؛ فرأى طفلا كبدر ليلة الحلكان وولدا كفرع الأرجوان ، غرق ورد وجوده فى الدم القانى واخترق رداء قالبه من بلية مخلب الضارى .

استبق اللعل من قدره السروى البـللور وتفوق الياقوت النضار من عروقـه على الكافور ؛ فقـال الراعى : ماذا ألم بك أيهـا الصبى وأنت جريح بلا ممرض وسط هذا المربض ؟ فقال : عضنى كلب ؛ ونظر الراعى فرأى جرحا غائـرا فعلم أنه أسد ، فقال : ألك أب ؟ فقال لى لكنه لا يعلم بما حدث ؛ فـقال ألك أم ؟ قال : كان لى لكن الكلب الذى عضنى أكلها ؛ فحمله الراعى وسار به إلى بلده وأخذ يداويه بدافع الرحمة ويراعيه بغـاية الشفقة ، حتى عاودته الراحة والصحة التامة .

وآب الأب الملك فى اليوم التالى لتفـقد ولده فلما بلغ حافة البئر رأى أسدا ضـاريا يزأر فى قعر البئر فارتعدت فـرائصه حسرة على تلك الحالة وقـال : أواه صار عينى ومـصباحى طعمـة أسد المصائب وغدا نرجس روضى لقمـة ألوان المصائب ، وأخذ يحثو من هم فـراق ولده رأسه بالرغـام ويصب من جمـرات الأحزان على هامته بالضـرام ورجع إلى دار ملكه بجبة متبرة وهامـة متربة كالكمون فى نواح والبنفسج فى أتراح :

تحايلت كل حيلة لكيلا أرى منك هجرا

لكن ما العمل وقد حكم الله بهذا قدرا؟

فأخذ حكماء الدهر وفضـلاء العصر يسكنون نار همه وقالوا : مع أن بقاء الولد مطلوب لأنهـم رائحة غاية السرور وشـجر ورد الحبور لكن القـمر بلا عقدة الخسوف والشـمس بلا بلية الكسوف وإذا لم يتجرع هذا الولد شربة الفناء فقد كان الملك فى قلق لتوقع

أن يحل به هو الفناء وبقاء الملك عوض بقائه ولقاؤه مرهم فنائه ، ولو أن دُرّة تهشمت بضربة الأجل فالبحر الذى هو معدن أصناف اللآلئ باق ولو أن زهرة سقطت فى التراب بصرصر القدر فإن الشجرة التى هى مطلع أزهار معانى المعالى قائمة ، وظلوا مدة يسّلون هذه المصيبة ويصفون هذه النازلة ، أما الولد فكان يمضى عمره سالما فى رعاية ذاك الراعى ليس به خبر عن حل العالم وعقده وليس فيه أثر عن نسىء الخلق ونقده ، ولما سلفت ثمانية أعوام وبلغ الولد الخامسة عشرة كملت قواه الطبيعية وبطلت نقائصه الطفولية وانعقدت ثمرة رجولته بغصن البشرية وارتبطت أسلاك الأمانى بيد الحيوية فكان الولد بحكم اقتضاء العرق الملكى يذهب للقنص، وكان من المساء إلى الصبح أنسه بالسيف والرمح، وكان على وسادته بالليل الحسام وكان جليسه بالنهار الضرغام .

ولما شاهد جمع من العيارين بتلك الولاية فى هذا الأمير الشهامة والشجاعة وأنه فى صولة أسد الأحراش وبصفة نمر قفر نهاش ، كالريح فى مسيره والنار فى أثيره قالوا له : الوبال فى عيش أصحاب السيوف فى ظل السقوف والمحال لأرباب الرماح غير امتطاء جناح الرياح :

من كان منامه مسكن النمر ومشربه موطن التمساح
كان ظهر النمر بالنهار مستقره وطعم الملوحة بالليل سكره

كن بحرا لتنجو من قيد القلال، وكن شمسا لتخلص من عار الأغلال. فى النهاية نهض هذا الولد مع جماعة مغاوير للسرقة فما أمنت الولاية بل تمكنت الفتنة وانقطعت القوافل واجتمعت النوازل فأتى الناس إلى ديوان المظالم يشكون تعرض العيارين ورفع أهل الولاية قصص الشكوى من تعدى السارقين ؛ فعين الملك جماعة من الحشم لدفع الضرر وقطع الثورة والشرر من قبل المعتدين ؛ فلما تلاقى أولئك المغاوير فى حرب معهم وتقاتل الجود فى ضرب لهم تزلزلت أقدام الجيش القدير أمام هجمات الأمير فعدوا الهزيمة غنيمة والفرار استظهارا ؛ فلما انهزم الجيش آبوا إلى دار ملك الملك ؛ فأناب فوجا آخر من الحشم وصنفا آخر من الخدم لدفع أنواع مضرتهم وأصناف معرتهم وقلع مواد فتنتهم ، وفى الكرة الثانية حين انتظم للرجال القلب والجناح والتأم للأبطال الميمنة والميسرة صرخ الأمير فيهم صرخة فقلب صراخه الشجاع قلب الجيش وجناحه وسلب رعب رجولته القدرة من الرجال فولى الجيش الأدبار وهو يصيح أين الفرار ؛ فلما رأى الملك وجوه الرجال الأبطال مصفرة وأنفاس أرباب القتال مبتسرة وصار كل عقاب قطاة ضعيفة وكل شاهين تذرجة نحيفة وانقلبت الخدود أرجوانية وانحنت القدود خيرزانية أصابه من هزيمة حشمه الملل ونابه من الرعية وأهل الولاية الخجل واختل شرف الملك وزل أساس السياسة ورأى ضرورة أن يتجه بنفسه للقتال ويعقد عزمه للنضال ؛ فلما وصل الشاه وجنوده إلى اللصوص بلغ دق الطبول

أوج الفلك الأعظم وسمع ضجة الـناى الجذر الأصم والتهبت نار الهيجاء واضطربت قوالب القلوب ، وكـان الأمير يحمل كالأسد الضارى ويجندل فى كل حملة من الجنود الفدائى الشارى ويهلك فى كل هجمة له المتجاهر والمتوارى برمح إذا ضرب به الجبل صار سهلا فيقلب به خلقا وفى كل حملة له ، إذا توجه بها إلى الفلك لألقى بالجمل والجوزاء إلى مهاوى الهلك ، كان يدحرج علما فى دمائه ، حتى هبط المريخ من فلكه الخامس مادحا لينظر هذا الهزبر وانحدر زحل من الفلك السابع لينظر حسام البتر :

يا من لحلة فهمك قوة حد الحسام　　أنَّى يثبت أمام حملتك أشد ضرغام؟

فلما رأى الملك ذاك الحال قام مع جـماعة من الرجال بأعنف قتـال فتـواجه الوالد والولد وتجـادل الأصل والفرع ، كـان الفرع يضرب بسيفـه على فرق الجذر وكان الثمر يطعـن بفأس بأسه فرع الشجر ، وفى النـهاية غلبت قوة الأبوة قدرة البنوة وظهـرت هيبة الأب على حالة الابن، وعـاد بجرح غائر واجتـهد الجيش كثـيرا حتى أسروه ، وعـاد الملك بطعنة نافذة فى المفرق وسـائر أعضائه وأجزائه فى دمه تغرق ، وقال للمنـجمين فى خدمته : أحكامكم خطأ وأقوالكم خطل ، قلتم لو عـاش هذا الولد فأجلك على يده ولو أهلكه الأسد فأجلك فى قوته وأيده ؛ فـأخذ المنجمون ارتفاع طالع الوقت وعـاينوا اجتمـاع الكواكب السيـارة وقالوا بمقـتضى الارتفاع وقضية الاجـتماع ، هذا الذى طعنك لن يكون غير ابنك

فعد الملك هذا حكما محـالا وأبدى لهذا القول ملالا وقال ولدى أكله الأسد فى الواقع ، وقال المنجمون : بالقطع لم يخالف مسير الأجرام وتأثير الأحكام قاعدة التنجيم وزيح التقويم، وكان الطالع صحيحا حسب قانون العلم وصريحا بناء على دقائق الحكم ونحن خدام الملك كيف يليق بنا أن نعمى خـلافا أو نعبى خطأ ؟ وصار استخبـار تلك المشكلات واستفسار هذه المعـضلات ضرورة لكثرة جدال حكـماء البلاط ومنـجمى الحضـرة ؛ فأتوا بهـذا الولد من السجن وسـألوه : ابن من أنت وممن ؟ قال : لا أدرى نـسبى من أى شجرة مكتسب ونسبـتى من أى عرق تنتسب؛ ولا أعرف أين أصل موطنى ، مـا أعلمه أن أبى كـان ملكا وبنى لى معـقلا فى جب وكان يأتينى دوما يرانى بحافة الجب ويلثمنى بوجهى وخدى ، وذات يوم ألقى أسد مفترس بنفـسه فى ذاك الجب والتقم ساعدى وألقانى بالعـراء وافترس بذاك الجب أمى الحـبيبة فـانحدرت بذاك الجرح العظيـم والضرب الأليم من قلة الجبـل وأخذنى راعى إبل واتخذنى ولدًا له إلى أن قـهر الزمان حولى ودحر حـيلتى ؛ فلما سمع الملك كلامه أقـبل يقبل وجهه ورأسه وقال فكوا قـيوده فهو أسـد من عـرين أدغـالى ووردة من ريـاض حـالى وهو فى الحق ولدى وفلذة كبـدى ، وزين رأسه بالتاج المـلكى الكسروى ووشى صدره بالديبـاج الملكى ، وقال : الحـمد لله أن وارث هذا الملك هو غصن روضى يمنى ، ومتصرف هذه الدولة هو سهيل اليمنى:

على عرش للملك اتكأ وسط عدله — امرؤ ليس بر أحد مثله فى سائر الأنحاء

من نور دولته من قلب حجر الجبل — تنفست بدائع الرياض فى عز الشتاء

ثم قال بختيار فى ذاك الحال : يعلم الملك ذو الهمم أن ليس بمكنة أحد الفـرار من القضاء الإلهى أو باسـتطاعته الاشتـجار مع جـيش القدر (المقـدور كـائن والهم فـضل)، لكن مع كل هذا فالتماسى من مكارم أخلاق الملك ألا يـسير فى عقابى على طريق الارتجال وجادة الاستعجال فسوف يعلم الضمير المنير للملك يوما أننى لم أباشـر قط جناية ولم أتجاسـر مطلقا على خـيانة ؛ فـقال الملك : عودوا به إلى السجن وأدوا بالغد حسابه .

ولما قال الملك هذه الكلمات أخذ جمع الوزراء وزمرة الندماء باجـتماع واتـفاق بالتـشنيع وقالوا : بما أن نصـائح رأينا فى هذه الحضـرة كاسدة وكلمـاتنا المصلحة فى هذه الدولة فـاسدة ورواج الزخـارف لهذا النجـس ورونق الأباطيل لهذا الـرجس ، فليأمـر الملك بأن نؤثر نحن وزراء الدولة وسفراء الحكمـة العزلة ونستظهر بالعبادة والطاعة ، ونهض مقدم الوزراء وكبير الكبراء ؛ فلما رأى الملك تغير الندماء وتظلم الوزراء قال : اذهبـوا واشنقوا بختيار ؛ فاجتـمع الجلادون حول بختـيار كالمريخ بجوار المشـترى وكغليظ الرداء فى مقابلة الحريري، وودع بختيار الحياة وتسمع نداء الأجل . فلما بلغ بداية الميدان أبهتت لطافة جماله النظار وأبكت طراوة شبابه الأنظار ، ولمـا خطا بختيار على سلم المشنقـة وصل صدفة

العيار الذى كان قد ربى بختيـار فرآه وهو مساق إلى المشنقة فلما رأى العيار مـا يقع فرق رداءه وصرخ لماذا تقتلـون ابنى ؟ فقال : هذا أمر الملك الجازم وفرمان السلطان الحاسم ؛ فأعطى مالاً حالاً للجلادين وقال : تمهلوا ساعـة حتى أعالج بالمال والمنال هذا الداء العضال ويبذل الثروة والنعمة أصلح هذه الأزمة ، وأتى البلاط مع جمع من الخلائـق وكان الشاه فى ضفة الديـوان وكافة الوزراء فى اطمئنان وأخذ العيار يتظلم قائلا :

أيهـــا المـلـك الميمـــون ارفق بـقلـبى المـغـــبـــون

يامن للدنيا من جمالك شؤون اشـــفق بقـلبى المحـــزون

أمرت الجلادين بإفناء ولدى وإدناء علم حـياته فلا تقتل ابنى (خُدَاداد) فـهو فى الفضل والشـجاعة نادرة الدهر وفى سـخاوته ومروته أعـجوبة العصـر ، نسبه ملكى وحـسبه سلطانى ؛ فـقال الملك : أى كلام هذا مـتناقض وأى حديث هذا متعـارض ؟ مرة تقـول إنه ابنك وأخرى إنه ابن سـلطان ، فقـال : أجل هو ابنى بالسبب والرعاية وهو ابن ملك بالنسب والانتماء ؛ فقال الملك : وكيف هذا ؟ فقـال : أيها الملك المعظم وشاه العالم قـصته مطولة وحـالته طالعـة ونازلة ، كنت يومـا سائرا فى بيـداء كرمـان مع عيـارين شجـعان فبلـغنا حافة بئـر ووجدنا هذا الصـبى كالقـمر والمشتـرى فى قالب بشرى موضـوعا على حافة ذاك البـئر ، قلنا لعل يوسف رجع إلى العالم ، أو القمر طلع من قعر هذا البئر .

فتنا بجماله وعشقنا دلاله فلما حملناه وجدنا جوهرة عظيمة ثمينة معقودة على ساعده وهو ملفوف بصدرة ذهبية ، فسميناه (خُداداد) وربيناه في مهد الرعاية ولطف التربية ؛ فلما سمع الملك هذا الكلام قال : أحضروا بختيار (إنى لأجد ريح يوسف) يهب النسيم القديم من المعهد الكريم على قلبى وتهيب الصبا المُصَبِّية من عهد اللوى وأيام الحمى بلبى :

أصقل قلبى من هموم الأيام   وألمس رائحة من وصل حبيب الأحلام

فلما أعادوا بختيار قال الشاه : أظهر لى هذه الجوهرة المعقودة بساعدك ؛ فوضعها أمامه ، فلما رآها أخذ به وسار به إلى سراى حريمه وقال : زوجتى أنت أمه وأنا أبوه وهو ذاك الوليد الذى خليناه على حافةَ البئر، وهذه هى الجوهرة التى عقدناها بساعده ؛ فلما رأت الأم الجوهرة دلكت بوجهها وجهه وبلغ الطالب المطلوب ويوسف يعقوب ، حمل الهجر المضنى رحله وأحلّ الوصل المغنى عرشه ؛ فأخذ بختيار يقرأ كتاب العتاب ويجرى الكلمات المذيبة للقلوب على لسانه ، قال : يا أمى أى جرم رميتنى به وأى بلاء بليتنى به ؟ قالت : كان تعليم الوزراء وتلقين المشيرين الحقاد ، ولما استرجع الشاه بختيار سلم له تخت الملك وتوج رأسه بتاج السلطة واشتغل بشكر الفضل الربانى ومدح الصنيع الرحمانى (لئن شكرتم لأزيدنكم) وعاقب بختيار الوزراء ورتب قواعد الملك :

فى دفع سهـام جسـد الأدنياء ليس أفضل من كفاية الله درعا

وفى مذاق العقل ليس مثل ترس الصبر فى الدنيا من تصفية الحوادث شهدا وسكرا

كن كالياقوت الذى فى كافة الأحوال لا يجد فى نفوذه من النار والماء خطرا

ولما بلغت حكاية «بختيـار نامه» من الابتـداء إلى الانتـهـاء فـقد تحـلى وجه هذه الـقصـص بـقدر قـدرهـا وتوشـى سـرو بستانهـا على مقتضى حالهـا وشرط نظار هذه الروضة أن ينظروا إليـها بعين الرضـا لا بنظر الجـفاء؛ لأن المنـزل كان منزل الغـربة والمحمل مـحمل فرقة . كـان فراق المحبـوب المذيب للقلوب قد شوش قلبى وخـاطري، وكان الهـجر المبلى للأعمـار مـلأ بالنـار لبى وناظري؛ فلا عجب إذا أهملت دقـيقة فى عقيـقة وليد ولدته أيام المحنة :

من هذا اليوم فصاعدا لو كان لى انشغـال بوجهك أُرَوِّج سوقا أيضا فى عشقك

وإذا لم يكن نسيم قد هب من معهد كريم وصبا قد مرت من مهب سخاء كانا مفرح رعايتهما يقويان قلبى الضعيف، وكان ترياق عنايتهما يعالجان سم الحوادث لمنعت سموم الهموم غصنى هذا من النشوء والنماء ولتـركته فى مفازة الحرمان كـحطب البيداء ، لكن الاتفاق الحسن أنهمـا خلصا البصر من الوسن والحلق من الطوق، وبعد أن أذهلتنا صـدمات الدهر وأدهشتنا سطوات القهـر تفتحت فى النهاية عين القلب وخطت قـدمى فى إرم النعم . لقّنّى لطف لفظه فى اكتساب السعادة تلقينات وحسن نظر إكرامه هذه البضاعة

المزجاة تحسينات ، ومع أن حكايات (بختيار نامه) بحكم كثرة الفوائد تستغنى عن هذه الزوائد، لكن همته العالية إلا كانت دائما عنقاء فضاء العظمة تقول بلسان الإحسان : بما أن هذا الدفتر فى فهرست مكتبتنا وهذه الأوراق تؤنس طيور وكنتنا فلابد لعروسها من سوار وخلخال ولطاووس شكلها طوق وجمال (أراهم قوما لا يشقى جليسهم) ، وبما أن جملة أجناس الناس باختلاف مشاربهم وتباين مراتبهم يلبسون كسوة من خاصة درر مجده فلا غرو أن يكتسى حلة قشيبة من هذه الدور بدوره الكتاب جليس الفضلاء وأنيس العقلاء ، وأوردنا خلاصة المدائح فى هذه الكلمة (أنا غريب فى الناس وأنت غريب من الناس)، والحمد لله أن ظهر فى عرصات الإقليم الرابع لهذا المتاع الكاسد مُشْترٍ ، ولهذه البضاعة المعطلة رواح مُمْترٍ ، وربما يقول قائل على سبيل التعجب أى صاحب حظ أنا ليس لمنشورى السامى تحرير ولا لتنورى الحامى فطير بعد سير سنوات لم يكن يرى غير السراب ، فإذا به يصل فجأة إلى عين الحياة العذبة الشراب فرأى فى حريم إكرام تاج الدين ماء الخلود وذاق :

المنة للحق أن رأينا كريما   وفى بادية العناء وجدنا نسيما

وبمدد إقباله شرعنا فى تحرير هذه المعانى لكن الشراب الذى كان بإبريق الاستطاعة لم يكن له إلا هذا المذاق والمركب الذى كان بميدان الطاقة لم يكن له غير هذا الفواق ، كان قلبى الذى

كان إغـارة الحوادث يتكلف لكى يدر هذا الشـراب أكثر دسـامة وكان الساقى الذى كان فى مجلس شرابى يجتهد لكى يصدر هذا الرجل أكثر ضخامة ، ومع انكسـار قلبه فى عشق حبيب لا فائدة من حبه كان ينشد هذا البيت :

لابد لى من قلب عفى من البداية فى كل تحقيق

ولا يتأتى من قلب كسير تدبير دقيق

يمكن أن يتكلف من كان قـدمه على كنز مرتجى أمـا من كان قلبه مستغرقا فى هم وضنيى صـار معذوراً إذا لم يكن فى ضيافته ظرافة وشرط المضيف الكريم هو أن يعـذر الضيف المفلس ويهجر الرفيق الساخر، وأن ينظر بنظر الشفقة إلى محفل العاجزين وجريدة المساكين لا بعين الجراءة ، ولا يحقرن البسـتانى البستان فى فصل الشتـاء حين يطوى الورد بساط النشاط بالكليـة ، فذات يوم تأتى الشمس إلى الحمل وتقـوم بخير العمل ، ويفتح البلبل الموسـيقار بالشدو المنقار ويجنح الورد من عالم الفراق إلى وثاق الميثاق :

يحقق الحبيب فى النهاية أمانى العشاق

وينتهى أخيرا ليل ألم الفراق

لم يصـادف أحد مـزيج الزمـان على نسق واحـد . كن دلو سيارة كل يوسف وصر مرهم جراحة كل مستأسف، ولا تكن مع رفيق غـارك بحيث يضرب رأسك بضربة (اقـتلوا الأسودين ولو كنتم فى الصلاة) بل كن بحـيث توضع على يدك شربة (إن الله معنا) . انظر فى كل صـباح حين ينشر منشور بيـاض النهار إلى

كل رواح يأخـذ فى كـتـابة أسطورة المجنون وليلى بـقلم (الليل حبلى) ، وانظـر فى كل فجر حين تزفـر الدنيا بارد زفـراتها إلى كل عاقل يجرع منها حاراً أو بارداً من شرباتها ، ما أسعد الجهلاء الذين لا يدرون عن حار هذا الـعالـم وبارده ولا يفقـهون من دواء ولد آدم ودائه :

لنـا عـبء يعلمـه كـل إنسـان

هو أناً كل ليلة نألم بهم الزمان

تم ترصيع بختيار نامه وتسجـيعه بإقبـال كريم الأيام وقدوة الكرام ولى نعـمة الفـضلاء والمربـى والمقوى للعلمـاء تاج الدولة والدين جمال الأئمـة شمس الإسلام ، اختـيار الملوك والسلاطين كريم الدهر افتخار دولة ما وراء النهر جعل الله تعالى دائما ألسنة الخلق بدعاء منفـعة ناطقة وهمتـه العالية على إعـلاء العلم وإبقاء الفضل صادقة مـاذَرًّ شارق ولمع بارق، والله تعالى منزه عن الزيغ والزلل ومبرأ عن السهو والهلك .

* * *

تمت الكتابة على يد العـبد الضعيف المحتـاج الغريق فى لجج المعاصي: يوسف بن أسعد بن يوسف الكاتب اللالكى أحسن الله عواقب اموره فى يوم الجمعة السـادس من شهر ذى القعدة المبارك عظم الله بركاته سنة خمس و تسعين وستـمائة ، والحمد لله وحده والصلاة على نبيه وآله أجمعين . .

فهرست الكتاب

الموضوع	صفحة
١ - مقدمة المترجم	5
٢ - مقدمة المؤلف	9
٣ - الباب الاول	19
٤ - الباب الثانى	55
٥ - الباب الثالث	73
٦ - الباب الرابع	95
٧ - الباب الخامس	111
٨ - الباب السادس	127
٩ - الباب السابع	137
١٠ - الباب الثامن	147
١١ - الباب التاسع	163
١٢ - الباب العاشر	183

المشروع القومى للترجمة

المشـــروع القومـى للترجمــة مشــروع تنمـيــة ثقــافيــة بالدرجــة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحيـاز إلى كل مـا يؤسس لأفكار التـقـدم وحضـور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمـة الأصول المعرفيـة التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	لن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ - الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ - لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	جين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيدرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيتل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير في البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

العنوان	المؤلف	المترجم
١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخ[illegible]
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحي العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أورian	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازار	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الفجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عروبكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – رحلة إبراهيم بك ج٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس جيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٧٥٣ / ٢٠٠١

بختيار نامة

كتاب «لمعة السراج لحضرة التاج» حديث هزله جد ، وقصصه عبر ، وسمره حكمة ، مادته الأولى وضعت باللغة البهلوية فى العصر الساسانى قبل الإسلام ، وسُمى بعد الإسلام (بختيار نامه) ؛ أى كتاب بختيار ، وبختيار يعنى السعيد ذا الجدِّ . أنشأ المؤلف المجهول كتابه (لمعة السراج لحضرة التاج) ليظهر علو براعته وسمو قدرته فى باب الإنشاء والفصاحة ليكون خير نديم للأمير المقدم له ، وليضمن به حسن الجائزة ودوام الذائعة، وأكثر من الترصيع والتسجيع والتجنيس كما هى عادة المنشئين والمترسلين أصحاب النثر المصنع أو النثر الفنى . ولا يفوت القارئ أن نقل الأثر الأدبى من لسان إلى لسان يفقده هذا الجمال بالضرورة إلا عند من يترجم البديع والصنعة اللفظية بنظيرهما دونما إخلال بالمعنى أو تقصير فى التعبير ، و
انتهجناه قدر الوسع بل زدنا حلاوة النص طلاوة وطراو
أن يقع من القارئ موقع القبول والاستحسان ، وعلى الله ا

